سادينا

SADINA

دينا سليم

قاصَّة فلسطينيَّة، مُقيمة في أُستراليا. لها أكثر من كتابةٍ ونشاطٍ ثقافيّ وأدبيّ. حائزةٌ جائزة ناجي نعمان الأدبيَّة لعام 2007 (جائزة الإبداع).

Dina Salim

Palestinian short-story writer, living in Australia. With several publications, cultural and literary activities, she is laureate of Naji Naaman's Literary Prize 2007 (Creativity Prize).

Nouvelliste palestinienne, vivant en Australie. A son actif s'inscrivent plusieurs publications et activités culturelles et littéraires. Lauréate du Prix Littéraire Naji Naaman 2007 (Prix de Créativité).

سعد حمزة

شاعِرٌ عراقيّ، من مواليد عام 1956، مُقيمٌ في أُستراليا. حائزٌ إجازةً في اللُّغة الألمانيَّة. له أكثر من كتابةٍ مَنشورةٍ ونشاطٍ ثقافيّ. حائزٌ جائزةَ ناجي نعمان الأدبيَّة لعام 2007 (جائزة الاستحقاق).

Sa'd Hamza

Iraqi poet, born in 1956, living in Australia. BA, German language. With several publications and cultural activities, he is laureate of Naji Naaman's Literary Prize 2007 (Merit Prize).

Poète irakien, né en 1956, vivant en Australie. Licencié en langue allemande, il a à son actif plusieurs publications et activités culturelles, et est lauréat du Prix Littéraire Naji Naaman 2007 (Prix du Mérite).

يَنْدَرِجُ هذا المؤلَّف الثُّنائيّ في إطار سلسلة "الثَّقافة بالمَجَّان من دار نَعمان للثَّقافة" الَّتي أنشأها ناجي نعمان عام 1991، وما زالَ يُشرِفُ عليها.

Ath-Thaqafa bil Majjan

Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991
par Naji Naaman

Dessin de la couverture: **Satar Kawoosh**.

© *Tous droits réservés* – All rights reserved – *Todos los derechos reservados*

1ère édition, septembre 2007

Le présent livre est gratuit. Les demandes de copies, commentaires des médias et réflexions personnelles sont reçus à l'adresse sous-mentionnée.

This is a free of charge book. Copies request, media comments and personal reflections are received at the under-mentioned address.

Este libro es gratuito. Las peticiones de copias, los comentarios y las reflexiones personales se reciben en la dirección abajo mencionada.

Maison Naaman pour la Culture
P.O.Box 567 – Jounieh (Lebanon) – Fax and Phone: 00961 – 9 – 935096
Web site: www.naamanculture.com - E-mail: naamanculture@lynx.net.lb

دينا سليم وسعد حمزة، الفلسطينيَّةُ والعراقيّ، العَربيَّان، جَمَعَتهما أُستراليا-الغربَة، كما جَمَعَتهما "سادينا"، روايةُ الغَرام الرَّمزيَّة بامتِياز، فيما لم يَجدا في الشَّرق التَّعِس ما يَجمَعُهما: فلا أرضَ تجمعُ، لا، ولا حرِّيَّة لغَرام، أيّاً كان هذا الغَرام: لحَبيبٍ، لوطن، وحتَّى، لإنسان!

ناجي نعمان

الإهداء

تقيِّدُني الكلمةُ إن لم أزرعْها في كتاب
وها أنا الآن أحرِّرُ أسري من بعضها

أهديها لكَ، عزيزي القارئ

دينا سليم

لا نملك إلاَّ ساحةً واحدةً جميلةً نتجوَّل فيها، نكتبُ على أرضها ذكرياتِنا الأولى ومشاكساتِنا وما سقطَ من جيوب عمرنا المَسفوح في الحروب التي لا معنى لها، ولم يتبقَّ لنا سوى بعض حروف أسمائنا التي ستظلُّ شاهدةً بعد الرَّحيل.

سعد حمزة

1

وصل (ساد) باحة المدينة ممطتياً حصاناً هزيلاً مرهَقاً, تلمَّس خطواته تحت المطر المنهمر. كان النَّهار يغلّفه العبوس, محت قطرات الماء خطوات اليوم, الأمس والماضي بأعبائه؛ كلُّ شيء كان مكفهرّاً حوله, لا غروب شمس ولا محفل لساعات, وكأنَّ اليوم فقدَ نورَه، وساعاتُ المساء ابتلعَتها أعباءُ المسافات. يلاحقُه طيفُه كأنياب تخطو فتخترقُ أرقَ الذّكريات, البعيدُ الدَّفينُ يحتلُّ المكان؛ وأصبح (ساد) عبداً للوجود المُعتِم والعزلة الخانقة. جالَ المكانَ متسائلاً:

لن أسأل عن ذاتي،
إذا كانت هناك ذات
ولن أسقط من سؤالي،
إذا كان هناك سؤال
وَحدي،
أبحث في صندوق العمر،
عن وصول له ذات

غمرته مياه الأمطار فحجبت عنه رؤية المدينة السَّاكتة, مدينة خالية إلاَّ من مياه الأمطار وأصوات الطُّيور المتعاقبة. يحرِّكُ أصابعه ببطء وكأنَّه يُمسك الجحيم بيده اليمنى، والجنَّة باليسرى. يعبر السَّاحة متعِّمداً إحداثَ أصوات بكعب حذائه, منتظراً الصَّدى, هو لحنُه الأخير, ربَّما سيعيدُ له بعضَ ما فات.
يتآمرُ على سنوات مرَّت, يبني أحلاماً شابَّة على ظنون وفرضيَّات. حليق الرَّأس والذَّقن, يحاولُ عدم إظهار الشَّيب الذي احتلَّه وشارباه, يحملُ راية الصَّمت, يُبحرُ في الماضي فتلتقي عيناه بوسامة الحاضر الذي يعيش.
يتنكَّر في زيِّ الشَّباب ويذوبُ عشقاً بالحياة, يفتحُ عيناه المُرهقتان بتثاقل, يأبى الاستسلام للنُّعاس الذي سباه, يريدُ أن يكون يقظاً وألا تفوته أي لحظة، فالعمر لم يتبقَ فيه إلاَّ الثَّواني. وغار صوتُه على الصَّمت القاتل قائلاً:

إمسَح عنِّي يا شتاء الحريَّة كلَّ البدايات،
وأنفخ في عروقي دفءَ الحكايات
حكايتي الأولى شتويَّة،
فصلُها الوحيد لم يُعتقني، حتَّى الآن
فتاةٌ جميلةٌ اسمُها (كفاح)،
أولى هفوات الشَّباب
عالقة روايتي في ظرف رصاص،
وانهمرت رثاءاتي كانهمار سحاب السَّواد
شتاءاتٌ كثيرةٌ مرَّت،
وسحاباتٌ ماطرةٌ انهمرت
وما زالت (كفاح) أولى الذّكريات

يا للذَّاكرة الخبيثة, تحتلُّه، وتستبيحُ هتكَ أفكاره! وويلٌ للعشق الأوَّل إن ذهب وولَّى، يأبى ألاَّ يكون أمتن وأقوى، حتَّى من الأخير.

جاء من سفرٍ بعيدٍ قاصداً بابَ (سادينا)؛ وها هو يطرقُ أبوابها متحدِّياً, مُناجياً, متأوِّهاً، يتغنَّى بزحام الصَّعقات, قبيحة كانت أم جميلة, وزخم الأحداث.

لم يكن أيُّ مخلوق في السَّاحة, وكأنَّ المدينة أغلقت أبوابها منذ عصور, ولم يعلم سرَّ سقوطه إلى هذا المكان... بل إنَّه يعلم! هو ذات المكان الذي أوقده مجدَّداً، وأشعلَ فيه نارَ الحبّ، فبات كأيِّ عاشق مريض. المدينة تشبهُه, مريضةٌ بمرض التهتُّك, مضعضعة عظامُها, هَرِمَةٌ جدرانُها, مَمحِيَّةٌ مفاتنُها.
مُغبَّرَةٌ ذاكرتُه, يتثاءب وسط النَّهار, لكنَّه لا يفقدُ خاصيَّة الكلام فيقول:

يحتلُّني شيطانُ الكلام،
يا مدينةً بلا أبواب،
كما يحتلُّك الفراغ
وخطواتي تأبى الرَّحيل،
مهلاً يا قلب، لا تودِّع كلَّ ما فات

بحث عنها في الممرَّات, في الأرصفة والحدائق الخضراء, حتَّى جاءته إشارةٌ منها, مسموعةٌ غير مَرئيَّة:

لم تشاورني الشَّمس بعد غياب فتأخذ طيفك,
لم تتمهَّل لأحفرَ الذكرى بلمحة منك ولم تتأنَّ الرُّجوع.
دعَوتَني للهواجس واللَّيل الطَّويل,

أفكّرُ بالكلمات التي سأقولها لك,
لأبحث عن العناوين وأنتقي أسماها.
لِمَ أطرق باباً من دون صدى؟
أشعرُ فيك ولا أستطيع رؤيتك, قريب وبعيد,
أموجودٌ أنتَ أم مفقود؟ أيقينٌ أم كذب؟
تناديني باسمي وهذا طيفك في أركان بعيدة.
هل أسمع صدى صوتكَ في غرف بعيدة,
أم أصرخ باسم صوتي؟

غافلته سحابة النَّوم العميق, دخل في عباءتها مجدَّداً، وسكن في ملكوته, طاف بعقله المتيقّظ حيث منابعُ الذّكرى، وشابٌّ غريبٌ يتابعُه عن بعد, يراقبُ دفقات قلبه, هو الشَّاهدُ الأوّلُ على وجوده, ربَّما كان متسوّلاً أو لصّاً! وربَّما كان فضوليّاً يعاني من الشُّعور بالنّقص وفقدان حاسَّة الولَه والعشق الحقيقي. إنتظر في ركن بعيد, تأوَّه حزناً مع (ساد) وانتفض أمام أنفاسه المحمومة.
وصوتُ (سادينا) يخترقُ مسامعهما:
أيَّتها الشَّمس الغاربة غيبي مع ثنايا الحبّ لزمنٍ مؤقّت,
أتركي ظلاًّ خفيفاً على حافَّة نافذتي,
أطرقي صندوقَ بريدي,
اقتحمي حبالَ الصَّمت,
فجّري أثَاث الورع،
وتهادي على أرضي الباردة,
دسّي بدفئكِ قلبَ الحبيب,
قبِّلي وَجنتيه,
أزيلي غيمة الحزن عن مفرقيه,
هيمي على شطآن العراء،
وقدّمي التُّرابَ موطناً لي...

إنتقض (ساد) من نومه منزعجاً، وبحث عن مصدر الصَّوت, لم يستطِعْ مبارحة مكانه بسرعة, حاولَ الاستقامة, حاول مراراً، ولم يفلح, فقرَّر البحث عنها بينما يجلسُ القرفصاء. كانتِ الطَّريقُ خالية، وأصبحت السَّماءُ قرمزيَّة اللّون. آلمَته المحاولات المتكرِّرة للنُّهوض، كما آلمَه سابقاً عدم قدرته اللّحاق بها إذ فرَّقت بينهما الأزمنةُ والأماكن.

أطبق جفنَيه مجدَّداً، كما أطبق النَّهارُ على الشَّمس المُتعَبَة. تكوَّرَ في مكانه. عادَ الى أحلامه المغنَّاة بينما يُعلن الغروبُ نهاية يوم آخرَ من البحث والترقُّب... نامَ، وتبقى يقظةُ أحلامه:
من كوَّة عار،
فيها السُّؤال يتجلّى،
فوق طرق الجواب البليدة،
يستوقفُه ضوءُ الفيلسوف الأخضر،
هو الذي نام في كأسه المثقوب،
وهو الذي ينضح فوق رأسه المثقوب من قطرات ما خَبَّأته كذبةُ السِّنين،
لا رجوع لديه إلى شواطىء الذَّاكرة.
ما خرَّبه أبليس لا يُصلحُه آدم المتسوِّل،
وحدَه يبنيه،
ويدفعُه إلى فيافي الرُّجوع لتفّاحة سمَّمت معنى البقاء وحدَها!!!
أوراقُه تدرِّسُ الذُّبابَ لغة الطَّيران فوق قارَّة الحريَّة،
ويشربُ من عسل الحروف المُبهَمَة،
ومن كأس المعنى المَركون في زاوية الانتظار يسخر هذا المتأمِّلُ بعباءة السُّكون،
ويهبطُ من جبله الثّلجي،
بمظلّة فرشاته،
على يباب البياض،
ويخطُّ بألوانه دمعتَه الأخيرة،
راية للاستسلام.

2

يروحُ (ساد) في غيبوبة النّعاس, يتصبَّب عرقاً, يتأوَّه بصمت, بينما يستمرُّ الشَّابُّ في مهامِّه, التَّرقُّب والتَّنصُّت, يتفرَّسه من أخمص قدمَيه وحتَّى قمَّة رأسه, مُستهجِناً, مستاءً، متسائلاً عن حال العاشقين؛ وأخذ يبحث، هو الآخر، عن (سادينا). بحث في الأفق البعيد, وتمنَّى لقاءها، وانتظر كثيراً علَّه يحظى بذلك.

إتَّحدت الكواكبُ بمُجون, تلألأت في صفحة السَّماء, فظهرت قريبة جدّاً, تزاحمت في الأديم حتى خيّل لـ (ساد) أنَّ أعمالاً غير عاديَّة تُسيِّرُ الكون, حركة غير مألوفة تجتاحُ الطَّبيعة، الخروج السّريع لبعضها وتغيير مسارها, غمرته الشُّكوك والارهاصات بأنَّ الأزمنة تبدَّلت، وقد دخل الكونُ زمناً جديداً. خشيَ من أن تبدأ الخليقة عصراً آخرَ وحياةً جديدةً من دون أن يعلم... وكيف له أن يتحقَّقَ من الأمر؟ عليه أن يعرف لأنَّ المعرفة مفتاحُ الدُّخول إلى البشريَّة, هي المفتاحُ الذي يأخذه إلى النّور, وإلى الطَّريق الصَّواب!

والآن، كيف سيخطو من دون معرفة؟ أين ستؤدِّي به الخطوات؟! التَّاريخ تغيَّر، ولا يزال يتوسَّط طريق البحث! لو يستدلّ على أوَّلها! حتَّى لو كانت تؤدِّي إلى العالم الثاني، سيسلكُها ما دام هدفُ البحث قائماً... البحث عن (سادينا) حتى لو سلك عصراً قمريّاً جديداً... ونادى بأعلى صوته:

هو زفافُك الأخير، يا ساد،
البحرُ خاتمُك،
والنُّجومُ،
الجهات كلُّها شهود،
والسَّموات، في حضرتك،
تقرأ آخرَ التَّسابيح.

يعودُ إلى سباته مجدَّداً، وكأنَّ السّبات كُتبَ عليه, أو ربَّما هي الكواكبُ التي تضعُه تحت سيطرتها حتَّى يزولَ عنه اللَّيل. وفي الفجر، يلمحُ طائراً عملاقاً يقفُ بعيداً, يأتيه مجانحاً بسرعة البرق, يصفّقُ بجناحَيه, يقترب وصوتُه يجلجل كالنَّاقوس. ما إن رآه (ساد) حتَّى بدأ بمُناجاته قائلاً:

إقرعِ الأجراس،
وأوقِظْ أرضَك من هذا السّبات،
واهبط بوجهك على المَلأ
فأنتَ آخرُ المُبَشِّرين:
هذه جنَّاتك، ومَن فيها،
وهذا تاجُكَ المَدهونُ بأناملَ حور العين
إفتح الآن أبوابَ الخَلق،
وغنِّ بصوتك المألوف لحنَ الوصال

حملَ الطَّائرُ صوت (ساد) وغادر به, تلحق به الأسراب، فتغلق أبوابَ السَّماء برحيلها, ربَّما هو إعلانٌ عن اقتراب فصل شتائيٍّ جديد. إكفهرَّت السَّماء وبكى (ساد) على شيخوخة محالٌ الاعتراضُ عليها. خشيَ من برودة الذَّاكرة وسباتها، وخاف من انجماد الحلم, فيُضطرُّ إلى الاختباء عن معالم الحياة والجلوس بالقرب من النَّار ليتدفَّأ, فزمن التَّجلّي وتقاسم الوَحدة مع الحبيبة قد ولَّى! ويرفضُ أن يستكينَ ويسترخيَ لأنَّه ما زالت للعمر بقيَّة. آمن بديمومة الحياة والانتقال من جيل الى آخر, فالمعرفة التي يملكها أبديَّة على الرَّغم من متغيِّرات الحياة السَّريعة. ومن كثرة ما يحملُ في جعبته حكماً وتجاربَ أصبح يهذي, فمستحيلٌ أن تُمحى الذَّاكرة, ومن قلب الفجر أخذ يدوِّن:

أنا أسكنُ في منتصف تورُّطك،
وكنتُ سببَ كلِّ هذا الهذيان
الذي أوصلك إلى عتبة المنافي،
أنا رئيسُ حكومة عقلك
الممرَّغ بالخروج إلى عوالم العشق
(ساد) طعنة كبيرة،
لولا صراخي في سبات المقابر
حوّاء وحدها جفَّفت دمعة الاحتجاج
وقبل أن تسلِّمَ على الأرض،
تركت من خيانتها
هي السِّكّينُ للآن في مدخلي
(سادينا) أنتِ أمِّي،
ومستودعُ الأسرار هذا ليس صوتي

إنَّما هي محكمة الأشياء،
ستبقى تحملُني حتَّى آخر المفردات، أو نتَّفق
لا تستخدمي لقادِمِ العذابات،
ولن يصرِّحَ للنَّاطق باسم خرابك
استخدامُ فعل الانفعال
كلانا سيغلقُ أبوابَه،
وسينتظرُ ما يحقِّقه السَّراب

3

إستفاقتِ المدينة، واستفاقت (سادينا) على صوت ناقوس الكنيسة التي فتحت أبوابَها أمام الزَّائرين, لكن... لم يكن هناك أيُّ زائر سوى واحد! جاء على حصان في زمن أصبح فيه الحصان قصَّةً خرافيَّةً وموقفاً ربَّما يكونُ مُضحكاً.

إستطاع (ساد) إيقاظَ (سادينا) من حلم مكرَّر، فأعاد إليها أجندةً من النّسيان, لم تستطِعْ لوعةُ العشق أن تغفوَ في قلب السِّنين, لكنَّ حوافَ الذَّاكرة تغمرُها ملابساتٌ مغايرة!!!
ولَطالما تغنَّت (سادينا):
أنامُ على حلم،
وأصحو على حلم،
يا أنذاء، يا توأمَ الحلم،
يا شريكي، وطريدي
يا مُشتهاةَ روحي،
وأنقاضَ بقائي،
يا أنتَ، يا أطلال،
يا تذكرةَ حياة
هديَّتُك باقية
حلماً مقدَّساً وأرضاً بلا وطن

أغلقتِ السَّتائرُ على ليلٍ مضى, وأغلقتِ المدينةُ أبوابَها مجدَّداً، وأعلنتِ الحدادَ على حبيبٍ لم يصلْ بعد. الذي وصلَ عاشقٌ تائهٌ أخذتِ العصورُ من صبره الكثيرَ، واستطاعتِ النَّيلَ من جسده الواهن على الرَّغم من تحدِّيه وارتدائه ثيابَ الشَّباب.

وعادت (سادينا) إلى الانتظار, المدينةُ حزينة, تذرفُ الدَّمعَ قهراً وألماً, ترتجفُ برداً وترتعدُ خجلاً, تريدُ استعادةَ بكارتها , يُداهمُها اللَّيلُ بصمته ويُغطِّيها الطَّيرُ العملاقُ بعباءته, يفرشُ جناحَيه انتظاراً, ويستعدُّ لاستقبال رسائلها إلى الحبيب مجدَّداً.
خشيت المدينةُ عليها, لا تريدُها أن تفقدَ الأملَ بوصوله, و(سادينا) لم يعُدْ يعنيها الوقت, فصبرُها أصبحَ قصيراً, وصدى صوتها يحتلُّ جدرانَ مدينتها:
خُذْ كلَّ ما تريد،
وأطلِقِ النَّارَ على عقلي
كي أستفيقَ من سحرٍ
حملتُه في رحلة اليقين
هذا نعاسي،
هذه رحلتي في مركب،
كنتُ أنا أقرأ صلواتي،
وأنتَ على ساحلٍ بعيد
سجِّلني ولو مرَّةً في دفاترك،
كي أسجِّلَكَ، أنا،
فوق وجه المحيط
ها أنا أنتظركَ بكلِّ حرائقي،
أفتحُ بابَ مدينتي،
أفتحُ البابَ للماء،
كي أستفيق

نافذتُها تطلُّ على بحر يرتجف، وبابها موصَد تزاحمُه الرِّيح, تكتب على صفحات الحياة, تدعو الهيام لزيارتها, تُدوِّن أمنياتِها على جناح الطَّائر العائد, يطرقُ فؤادَها من دون موعد... يحيطها بذراعَيه، ويستدير فوق رأسها, يلمس إيقاعاتِ قلبها الخافق

فينتفض روحاً خفيَّة, قوَّةً علويَّةً كامِنَة تمازجُ الحاضرَ بالمستقبل, أنفاسُها تنتحب وتنتفض دهشة وروعة. تخرجُ من سكونها تاركةً خلوتَها وأنفاسَها المطواعة تنفثُ آهاتٍ متأرجحة وتنسابُ كريشة ثائرة تنثرُ حبرَها من دون قيود فتغار منها الكلمات:

عندما ولدتُ،
فاليومَ ذكرى ميلادي،
قبلَ سنواتٍ من الآن
هبّت عاصفةٌ هوجاء،
ذاب الحصى في الماء،
أطلقتِ الكرمةُ فتاة،
كان ذلك في نَيسان،
نهضتُ من سبات
أولى خطواتي الى الحياة،
غريمتي،
كبرَ الطِّفلُ داخلي،
كسرَ القيود،
واستقلَّ المسافات
عبرتُ حدودَ الدَّلال،
طرقتُ الأبواب،
أسقطتُ أوَّلَ الكلمات،
كخميلةٍ على جناح،
انسابت من قلب نَيسان
تغنَّى بي أهمُّ الرِّجال،
وضعَ زهرةً حمراءَ في كفّي
سكنَ اللّيلُ في عيني،
استلَّ غفوتي،
زحفَ السُّهادُ إليّ،
وعشقتني دروبُ التّرحال
نسمةٌ خفيفةٌ هزّتني،
نبضَ القلمُ بين أناملي،
ومن أضلعي
لحنٌ شجيٌّ أسعدَني،
تملَّكتني بحورٌ خفيَّة،
استدركتني نسمة،
ألهبَتني جمرة،
تلظَّيتُ سعادةً،
على شطآن النبوَّة
أسرَتني أسرارُ الكون
توهَّجَ قلبي،
صهيلُ خيلٍ أخذني في بندول ساعات
أرتشفُ اللّحظات،
وأرتعشُ كسندسةٍ على قمر
هي الأيَّامُ التي أصبحتِ الآن من دون تقويم

سمعَها (ساد) من بعيد, كان حزنُه عارماً, أرادها بشدَّة ليقول لها إنَّه هو الحبُّ وهو الحبيب، أراد أن يصرخ , أن ينادي, أن يلوِّح, أن ... وأن ... وأن!!! لكنَّه علمَ في قرارة نفسه أنَّها لن تسمعَه ولن تراه... لأنَّه دخل دوَّامة العاشقين في زمن وعصر آخر... لكنَّه، بالرَّغم من ذلك، قرَّر أن يصرخ، وبأعلى صوته، قرَّر أن يقول:

من دائرة البَوح
يصرخُ هذا الذِّئبُ المسوَّرُ بالمحنة
بقميصٍ اسمُه كذبة الأهل
وهو الخارجُ من لعنة التَّراتيل،
نازلاً إلى قمامة الله،
يتسوَّلُ وجهاً نسيه،
أو ينحني لجلال التَّمرُّد،
ولا مرّةً أنصفَته لعنةُ التَّواريخ

 © *Tous droits réservés*

هي بقعةُ دمٍ فوق ثياب النَّقاء،
أصدقاءُ الأمس،
موسيقى خرساء تنفعُ لمجزرةٍ قادمة
قبلَ فجر الأشياء،
ووحدَك المُنادي في فضاء السّلم المكسور
تمسكُ نجمَك اليتيم في حضور الثّلج
متى تستيقظُ الباحاتُ من نومها الكسول
أنتَ المدهونُ بهذا الانتظار،
المغلّفُ بالقادم
وفوق سرير العاهرات ترمي بعينَيك
لغة لهذا السّرور الذي أسميتَه بقيَّة العمر
ووحدَك في قارَّة الذّبول
تروِّضُ النّعاسَ في قفص الاتّهام
مَن أتى بكَ إليّ؟
ألا مسموحٌ به غير الصَّوت الممنوع من الصَّرف
وتغلّف الكلام بالصَّباحات المرهقة
هكذا ترتشفُ كؤوسَ النّهايات
على موسيقى اسمُها العَدَم
وترتدي التُّرابَ الهاربَ من يبابه،
هي قارَّةُ عطشك
لمَ كلُّ هذه الصُّلبان المعدَّة لخطوك المسائيّ
فوق دفاتر الأغبياء
كي تعلنَ مملكة مقفلة
دورتها بين وجه خارج من سبات الحرف
إلى وجه يعلن بيانَ البياض،
تجلّى بهذا النّصف
هو وحده يمشي على مجرَّات الماء
ستشرب الموعد المؤجَّل،
وتثمل بخمرة الأرقام
هي العصى الدَّهشة،
ستوصلُك إلى ضحكة الأسباب
أيُّها الرَّاهبُ الأبديّ:
هذا الأفقُ لك،
وكلُّ قادمٍ إليكَ
عَبدٌ يصلّي في محراب خطواتك
نذراً لبقيَّة الجواب،
آدمُ المعلنُ عنه
ضاعَ في خبايا الجرح
الهزيمةُ لغةٌ فوق مائدة التَّعبير
أعطيني ما تبقَّى منّي
كي أهرولَ في عالم التَّعب
أو أرسمَ بخراب فرشاتي
هذا الأفقَ المعطَّرَ بفاكهة دمي
ساديناً!!!
سقطَ الصُّراخُ من فمي،
كيف أحتجُّ على بقاياي،
هي مجزرةُ السُّؤال،
وما تبقَّى من فضيحة الألم
وَحدي أحملُ صخري،
أجوبُ به فوق خارطة التَّذكُّر
وكنتِ وَحدَك
آخرَ شاهدٍ على مشنقة الأفق
هكذا أرى نزولي

 © Tous droits réservés

عابثاً من ساعةٍ لا توقظني
لكنّي سأوقظُ خراب الورق
كي يمشيَ في جنازة الشّعر

4

كم تمنّى أن تسمعَه وأن يقعَ صدى صوته في حضنها. فاجأته النّتيجة إذ لم تكن بحَسَب توقُّعاته. خابت آمالُه، فمناداتُه جاءت متأخِّرة, لن تسمعَه ولن يسمعَه أحد. أيقنَ أنَّ الماضي رحل بمتاعه وأسماله, ولم يتبقَ منه شيء, حتَّى الزَّفرات الدَّافئة ذهبت بمَعيَّة همساته الحائرة, ربَّما اختفى (ساد) داخل عصر وهميّ! ربَّما احتضنَه النّسيان! ربَّما حوَّلته الحرِّيَّة، وحوَّله التّرحال شخصاً غريباً، فلم تعرفْه حبيبتُه!!! منذ أن قرَّرَ الانتسابَ للحاضر باحثاً عن المستقبل وهو يعاني, رحلتُه إلى المستقبل كانت مغايرة, صدمته الحقيقة وأوقعه اليقين في مطبَّاتٍ لا يستطيعُ التَّخلُّصَ منها. لِمَ استهواهُ البحثُ عن حبٍّ يسكنُ إحدى المجرَّات, أم هي ذريعةُ المطالبة بالحرِّيَّة... نعم، الحرِّيَّة... هي ما تتوقُ له نفسُه... الرَّحيل حيث الحرِّيَّة كلَّفَه الكثير, وبدأتِ الرّحلةُ الطَّويلة... ودفع مقابل ذلك ثمناً باهظاً... دفعَ فقدانَ الحبِّ الحقيقي!!! لن ينسى كم كلَّفته الحرِّيَّة وكم دفع في المقابل! لن ينسى روحَه الحبيسة، ولن يتجاهل عذاباتِه ومعاناتِه, ولن يغفرَ أبداً لمَن سلبَه إيَّاها... لكن، أفلا يكونُ موروثُ العشق أمتنَ من الحرِّيَّة؟ الحرِّيَّةُ حقّ، والعشقُ حقٌّ أيضاً. أيُّ دستور يستبيحُ رحيلَ سنوات العشق مقابل المطالبة بالحرِّيَّة؟ هل نُصَّ دستورُ العشق على حساب الحرِّيَّة؟ وهل شرائعُ التَّضحية بالحبِّ أقوى؟ أحسَّ (ساد) أنَّه يملكُ حياةً بلا حياة, جسداً غير مرئي, روحاً بلا أنفاس! وحبّاً عظيماً خالداً. إنَّه لا يعرف مَن يكون وكيف يكون, كلُّ ما يدركه أنَّه في فصل خريفي بعد أن رحل عنه الشّتاء! ويا للعجب! إنَّ الرَّبيع يتخطَّاه متعمّداً, فيدخل معبدَ الذَّاكرة من جديد كي ينفضَ عنه فصلَ الشَّباب...

عصورٌ من الأرق تملأ رئتَيه, بات كطير يجانحُ رسائلَ بلا عنوان, يحملُ وصمات عار وَجدت لها ضحيَّةً ومقرّاً. جاء الخريف ليعاقبَ السَّنوات وبقاء الخطوات, كحلُ أجنحته وأغطيةُ أدمُعه في انتظار مطر الصَّحراء, بسمةُ الغدر تجودُ عليه بقطرات النَّدى ليلاً فتعصف كيانَه وذاكرتَه. لا يستطيع نسيانَ الماضي بغدره, مستحيلٌ نسيانُ الحروب, تساقطِ رؤوس الشُّرفاء، حروبِ الإبادة وإزهاق الأرواح. آلافٌ مؤلَّفةٌ من أوراق العمر سقطت أمامه في منتصف الطَّريق وغادرت مُرغَمَةً شجرةَ الحياة!
تمنَّى لو يستطيع مَحوَ الذَّاكرة, وكيف له ذلك؟! لم يكُن أمامه سوى العشق يملأُه ويعوِّضُ عليه مآسي الحياة وقسوتها, والعشقُ بعد الحرمان نهرٌ خالدٌ تكمنُ فيه أسرارُ الكون والكينونة... حتَّى لو استُبدلت الأماكن, الأزمنة، الأسماء...

عسيرةٌ دموعُه, تنهمر، وما زالت خفقاتُ القلب تحتفظُ ببصمات (سادينا). يوجِّه للحياة جلَّ اتِّهاماتِه وضياعَ السَّنوات وإدراجَها في ملفِّ الذِّكريات, يتَّهم شرَّ الوجود بتعثُّر الخطوات وتحويل قدمَيه بحراً من السَّراب, ويقرِّرُ أن يمضيَ في طريقه الشَّائكة ووعورة السَّنوات بحثاً عن اثنين: (سادينا) والنّسيان.

غادرَ المكان وهو يغنِّي بلوعة:
كيف لي وأنا أجلسُ على دكَّة الحبّ،
أتذكَّرُ آخرَ قرار،
فيما شفتاك تدعوانني للانتحار،
وقلبٌ يدعو للانتظار
صدِّقيني،
أنا قادمٌ من قطار
إنَّه بلا سِكَك،
لكنَّه يمضي على سكَّة الاحتضار
لا تلوِّحي كثيراً،
الوردُ نسيتُه في جيبي
وأحدُهم سألَ عن هوِّيَّتي في القطار
بالخطإ أخرجتُ زهرتَك،
وهذا ما غفرَ لي...
لأنَّني بلا أوراق

إبتعد، لكنَّه لم يغادر. ترك كيانه في (سادينا) مكان اللّقاء الأوَّل, علَّه يحظى برؤيتها, وها هو يسمعُ صوتَها من بعيد, تناجيه تاركةً له إشارةً لمعرفة مكانها:
هل تعاني من البحر مثلما أعاني؟
هو مرضي المُزمن ودوائي الشَّافي،
يأخذُ منِّي صباحاتي وساعات قيلولتي
تهمسُ في أذني الرِّيح،

 © **Tous droits réservés**

تحجمُ شرَّ البشر عنّي
أغفر لي جميع هفواتي،
أرعنُ أحمقُ هو الدَّهر إن اختزلَ ابتساماتي
كُن مثل البحر صبوراً،
ينتظرُني في صَحوي وحتَّى منامي

لم يصدِّق نفسه, إنَّه يراها, هي أمامه بشحمها ودمها, إنَّها حيَّة, ما زالت تحتفظ بجمالها وشبابها, تجلس على رمال البحر ولهاثُها يمزِّقه, تتحرَّك أمامه, تتبختر حافية والرِّمال الدَّافئة تصرخ من تحت قدمَيها. إنَّها حوريَّة ليست كسائر الحوريَّات, لقد منحَته إشارةً حول مكان وجودها. هادئة صامتة هي, تُرى ماذا تنتظر؟ فمهما لوَّح لها ومهما فعل لن تراه, هو الذي يراها ويحسُّ بها، سيكتفي برؤيتها, لن يطلبَ المزيد.

تأخذها الرِّيح من خاصرتَيها, تعرِّيها من ثيابها. خشيَ (ساد) أن تعرِّيها الرِّيح من أحلامها أيضاً, لاحقها بعينَيه, غارَت عليها السَّماء بغيومها، فغار عليها منها! تواجه غارةً أخرى فتتلبَّد بالسّحاب, ترجَّلت عارية تبحث عن مأوى، ويتمنَّى (ساد) أن يأويَها بحنينه. سرقتها الرِّيح وسحبتها الأمواج, إنَّها تغادر وصوتُها يعلو في الفضاء:
غداً ليلٌ يودِّعُ عشقَ الشَّمس،
فتلهمه ما تبقَّى من هذياناتها
واليومَ ما زال يشدو هذا النَّحيب،
تاركاً في أفق الرَّحيل خرابَ الأصوات
ما جدوى هذه القِمَّة
لطائرٍ باتَ وحيداً فوق غصونها
يردِّدُ أغنية،
ويتركُ صدى أمنية
هي نهايةُ ما سيُسدل على مشهدٍ
كان حلمَ كلِّ وحيد
(ساد) أطرقْ بابَ الألم،
ولوِّنْ كفَّيكَ بدم العصور
ما جدوى انتظارك شوارعَ
خبَتْ أنوارُها وتحوَّلت كهوفاً
هباءٌ هو الانتظارُ في أزقَّة،
ضاقت بي وبك الخطوات

ويأتيها صوتُه من بعيد:
توهَّمت في السَّادس من خطإ آدم
أن لا ألفَ ولا أدور
من هذا العَدَم سأحملُ جنازتي فوق كفِّي
وأكتبُ للّذي لا يعرفُ مَن أكون
هناك...
عليَّ معرفةُ السُّؤال الحجريّ
كنتُ أخاطبُ مَن لا يكون،
لذلك
سأنشرُ بقايا حصى صوتي على مدنٍ
ستُعرفُ وستدوم
إمنَحيني بعضَ الوقت،
فالحظُّ دقيقتان

سادينا: *زمني أقفلتْ عليه الأيَّامُ يا (ساد)،*
على الرَّغم من الشَّباب.

ساد: *إمنَحيني آخرَ الكلام.*

سادينا: *أخشى من سبات الخاتمة.*

ساد: *موعدي والضَّياعَ قريب.*

سادينا: *لا تدَعِ الوصالَ يتيه،*
فما يجمعُنا الآن
سوى دموعِ الحنين واللّقاءِ اليتيم.
ساد: *أخطو وحيداً والسُّؤال في عيني.*

سادينا: *سأصغي إليك*
طالما كنزُ السُّؤال يتخبَّطُ في أعماقكَ.

ساد: *لو أستطيع لمسَ جسدكِ!*

سادينا: *سأبتعدُ قبل أن تلقّني الرِّيح.*

ساد: *سادينا, يا سلامَ الرُّوح ويا سرَّ الحكايات,*
إنتظِري قليلاً...

سادينا: *سأبتعد,*
ستصعقُني العاصفة وتسلّمني للسَّحاب المشحون.

ساد: *وأبقى أنا صيَّادَ الغيوم...*
في شبكتي جميع الغيوم,
سأسقطُها
وأروي جفافَ الأرض المُصابةِ بالطَّاعون...
سادينا, سأقطع رؤوسَ الظَّالمين بفأسي,
لكنِّي أخشى أن تُصابَ هذه الفأسُ أيضاً بالطَّاعون!!!

سادينا: *فأسُك أداةٌ قديمة*
لن تصلحَ لتحطيم سوى الأصنام التَّافهة!

ساد: *لو تدرين*
كم يحتاجُ هذا الزَّمن إلى أبطالٍ أسطوريِّين
كي يُعيدوا الدَّمَ النَّقيَّ إلى أوردة التَّاريخ.

سادينا: *وكَم يحتاجُ هذا الزَّمنُ العقيمُ إلى المحبَّة والوفاء!*

ساد: *تعالي، إذاً،*
نلقّنُ الزَّمنَ درساً في الوفاء,
إنزلي إليَّ, تختارين سكنَكِ وسط الغيوم!
سأسقطُكِ في حضني,
سأنقّي البسيطة بمائي,
وأبسطُ جناحَ الوصول على مستقبل السَّعادات.
سأحصلُ على جائزة الحياة وأنتِ معي,
سأكتشفُ ذاتي, أعرِّيها وأعيشُ الحقيقة.
لقد عبرتُ طريقَ النِّهايات ووصلتُ حيثُ أنتِ,
لن أتوقَّفَ لمجرَّد سماعي التَّصفيق,
لن أهرولَ نحو المديح,
لن أنضمَّ للعذَّائين طالما التَّصفيقُ من نصيبي,
سأقطعُ خطواتي تجاه خاطفي الرَّايات المنافقين,
الدَّجَّالين، اللّصوص,
ما من أحد سيعشقُكِ مثلي حتَّى نهاية كلِّ العصور...

سادينا: *أحلامُك كبيرة،*
وما زلنا في منتصف الظَّهيرة!

هل أنت ثَمِل؟

ساد: *عبَّأتُ في كأس الشَّمس سعاداتي،*
وبدأتُ أشربُ بصحَّة الظَّلام؛
ترنَّحتُ كثيراً فوق أرصفة القوَّالين،
والعابرين، والباكين،
والضَّاحكين على ذقونهم،
والأطفال الشَّرعيِّين، وغير الشَّرعيِّين،
والباعة المتجوِّلين،
وأمِّي الصَّابرة،
وأبي المَدهون بالرَّكض،
وأخوتي الَّذين ابتلعَتهم الحروب،
وأصدقائي الأوفياء، والخونة منهم؛
ثمَّ أفقتُ على وجهكِ
أسيرَ قمرٍ يُطالبُني بآخر الحروف،
فأطلقتُ النَّارَ على النَّوم
كي أرى ليلاً تسودُه التُّخوم،
مَن يقايضُ من اللَّحظة.
هذا رصيفٌ أبيضُ مُطرَّزٌ بشيب الانتظار،
وهذه فواتيرُ سوداءُ تُطالبُني بالغناء
بعد أن غابَت حِبالُ صوتي في دهاليز الغربة.
سادينا، أخرجيني من وَحل الغموض؛
أنا ابنُ ذاك البياض؛
مرقدُه على شاطئ ولادتي،
الشُّموعُ تسوِّرُه،
وتتحنَّى من طينه جميعُ الأمَّهات؛
وإذا ضللت الطَّريق إليه،
اصرخي إيناس،
هي المدخلُ الصَّحيحُ إلى كهفي،
والدَّليلُ لمَن حلَّ به الجفاف.

صمتت (سادينا)، أصغت إليه المدينة، واحتفظت بوقع الصَّدى, توقَّفَ الرِّجالُ عن لعبة النّرد, وخرجتِ النِّساءُ إلى الشُّرفات يَبحَثن عن مصدر الصَّوت, والأطفالُ يحفظون ما قاله, وعلى مرِّ السَّنوات احتفلتِ المدينةُ بيوم الحبّ, كبرَ الأطفالُ وهم يتغنَّون:
العجوز،
إذا غنَّى، يُغنِّي بأحلى الكلمات،
وإذا رقص طرباً،
ترقصُ جميعُ الفتيات
هذه أصابعُه، هذه خطواتُه،
تعالوا نغنِّي لحبِّ اللَّحظات.
قيثارتي: لستُ تعبة، وأصابعي بريئة، وحنجرتي جميلة،
على الرَّغم من أنَّ العمرَ فات،
ما فاتني شيء، أبدا.
أنا أرقصُ الآن.
العجوز، إذا غنَّى، يُغنِّي بأحلى الكلمات،
وإذا رقص طرباً،
ترقصُ جميعُ الفتيات.

ونعودُ إلى سادينا: *لمَ لا نخطِّطُ معاً لمشروعٍ يُريحُنا؟*

ساد: *أوافق الرَّأي, ماذا تقترحين؟*

سادينا: *مشروعاً اسمُه الجهات,*
من أجل انتصار الذَّات,
كي نحصلَ على خارطة الكنز المفقود,

حيث لا ضرورةَ للرّكض ولا للّهاث,
وسيبقى عدونا أبديّاً.
لكن هناك مشكلةٌ بسيطةٌ,
لا أعلمُ ماذا سيكونُ دليلُ الوصول!

ساد: *عندما يتوقّفُ عندك اللُّهاث,*
ضَعي يدَكِ اليسرى،
جسِّي قلبَك،
ثمَّ اقرإي خيوطَ راحتكِ...

سادينا: *وماذا بعد؟*

ساد: *إن توقّفَ قلبُكِ عن اللُّهاث فعلاً,*
سأحفرُ لي حفرةً بعمق قدميّ!
دعينا نترجَّلْ معاً ونغادرْ معاً,
مُدِّي يدَكِ وسلِّميني لحنَ الوصال,
أم تريدنني أن أسلّمَ تلويحةَ يدي لهواءٍ مسكونٍ
برئاتٍ تنتظرني على سلّم الوداعات.
وسأتركُ بعضَ قميصي
لكلِّ الذين يحبونني ويودّون وصولي,
تعالي معا نطرقُ أبوابَ البدايات
ونعيدُ للحياة طهارتَها.

سادينا: *أخشى وعورةَ الرّحلة!*
لِمَ لا تنتظرُ معي،
فأرضُ الأجداد تناديني.

ساد: *إن نزلتُ الى أرض آدم المسكونة بالشُّبهات*
سأفضحُ عريَه...
ويصيح بأعلى صوته: *أنا الوحيدُ في ساحتكَ يا آدم القادرُ على ذلك,*
غادِرني وإلى الأبد،
أو اتركني أمنح عَدوي إلى آدمَ آخر.
لا تلمني يا أبَا البشريَّة
فأرضُك مراتون حياة,
لن أبدأ من جديد
لأنّني أعلمُ تمام العلم
أنَّ الزّواحفَ قد سبقتني
ولن تنتهيَ إلاّ بسقوط الأبديَّة...
سأرحلُ إلى عالمٍ آخر,
إلى سماءٍ تُعيرُني من صبرها لبداية رحلة.
ويعلو صوتُه أكثر: *كنتُ نصفَ أرضيّ،*
وكنتَ تعتقدُ أنتَ نصفَ سماويّ،
وحين أطبقتَ النِّصفَين على أفروديت،
تأسَّستِ الأرض،
وبدأ الدَّوران.
آدم، يا نصفَ الخطيئة،
الأرضُ صناعةُ الخطيئة.
ما زلتَ يا آدم تَحيا الخطيئة.
فضيحة العار تعتبرُها خطيئة،
وفضيحة الحبِّ أكبر خطيئة،
وفضيحة الإنسان بلا عارٍ هي أكبر خطيئة.

© *Tous droits réservés*

5

في الماضي السَّحيق رحلَ (ساد) وهو في ربيع العمر كي يبدأ حياةً، بعيداً عن أرض ملأى بالخطايا, رحل بولادة جديدة لم يبدأها من رحم أمّ, خرج من بطن الحياة إلى عالم الجمال والحرِّيَّات.
الجمالُ الحقيقيُّ هو التَّلاقحُ الَّذي يبدأ في الذَّاكرة, فالعقل والجسد. خرج من سجنه إلى صوب الأبديَّة, كانت رحلتُه طويلة, لم تثنِه عن البحث عن الحب الحقيقيّ, صادفته حكاياتٌ كثيرة، سريعةُ النِّهايات. إلتقى بالنَّاسك المتأمِّل, بالصّعلوك الحائر, بالفوضويّ, بالمتزمِّت والمنفتح, خرج عن المألوف وبحث عن حقيقة الوجود, تغذَّى من حكايا النَّاس، أدهشته غرائبيَّةُ الأحداث, انساق مع مُحبِّي الحرِّيَّات فأضرمَ النِّيران شتاءً ليتدفَّأ، وصيفاً كي يشعلَ سيجارَه. مشى المسافات وحيداً على قدمَيه، وأحياناً، أوصلته النَّوايا إلى مقاصدَ يذكرُها ويكرهُ تذكُّرَها. تشرَّد, جاع، شبع, تساءلَ، اختار...
لكن!!! حظيَ أيضاً برؤية الشَّكل الآخر للحياة... الموت... فدخل عالماً مسكوناً بالخوف, على الرَّغم منه, رجع من رحلة البحث مكرَهاً, ساومه الآخرون على البقاء، ولم يتركوا له حرِّيَّة الاختيار, الموت أو العيش خائناً البشريَّة, مستهتراً بها, مباعاً كسلعة, مستهلكاً كأيٍّ بضاعة, ويجب أن يكون عديم الذِّمَّة كي ينجوَ بروحه. إنسكبَ دم أصدقائه أمامه على البسيطة, لم يستطِعْ التَّنكُّرَ لهم, أرادَ أن يفدَيهم بنفسه, لكنَّهم ماتوا بالعشرات, وماذا باستطاعة الوحيد أن يفعل, ذهبوا وكأنَّهم لم يكونوا.
إنقلبَت رحلته إلى شائكة, توقَّف عن البحث, لا لزومَ لذلك، فالأولويَّاتُ للحروب والسُّجون, ومحبِّي كراسي العروش! والباقون أتباع, خدَّام, حرَّاس، عميان.
عاش من دون حبٍّ حقيقيّ, حتَّى إنَّه فقدَ السَّلام والرَّاحة النفسيَّة, أمثالُه كثيرون يعيشون ويموتون من دون أن يجدوا الرَّاحة والسَّعادة, وكأنَّهم لم يكونوا! ولا يعلمُ لماذا خلقوا بالفعل, ما أهمِّيَّة وجودهم؟ وكيف يمكنُ منعُ مجيئهم؟
وتوقَّف في نصف الطَّريق ليسمعَ نفسَه:

الضَّجيجُ الدَّاخليُّ يعلو...
فرَّت قدماي من نوازعهما؛
ماذا أفعلُ بهواءٍ يستجدي ذاكرةَ مكاني.
اللُّصوصُ لم يتركوا وجهاً من الوجوه،
فما بالي سأراكِ في كلِّ محطَّات الأرض.
وقعُ أصابعي مدوَّنٌ على الجدار الذي بنيناه من نسج،
تطاردُه للآن أفلاكُ الوقع؛
شباكي في حقل اليباب،
رميتها يا سادينا،
لم يأتِني غير وجهكِ...

وتقاطعُه سادينا من بعيد:
أتركْ شباكَ الصَّيد في مكانها،
وابتعِد يا ساد،
شباكُكَ تولِّدُ مزيداً من النِّهايات،
دع الكواكبَ تنتفضُ خجلاً،
وازرَع الدَّمعَ في عين القمر والزَّمن
لن أطرقَ سوى وجهةِ الطُّرقات،
أبحثُ عن طريقٍ مسدودٍ
توقَّفَ منذ زمنٍ عن أطلاق القهقهات
أتركْني أناجي الحزنَ
وأتوسَّدَ الصَّمتَ العائمَ في ضباب الكلمات

ويغيبُ عنه صوتُها, يناديها فيسقطُ صوتُه بعيداً, يسكنُ متاهة الصَّمت, يُطلقُ عصاه عبر الرِّيح فينتفض جوادُه جزعاً, تحمَّله طوال رحلة البحث الشائكة, ذرفَ دموعاً آسِفةً على فارسٍ وحيدٍ أعزلَ أصرَّ على ارتياد الرّحلة.
ساد: *جالسَتْني بقاياي في حساب اللاَّأدري،*
فأمسكتُ أواخري.
وكي لا أكونَ ثقيلاً على كفِّكَ،
داهمَني الظَّلامُ المُضحِك،
فبكيتُ على أوَّل الإشياء،
ومضيتُ أودِّعُ ما تبقَّى منكِ من بياض الورق المتروك في صندوق البقايا،
موقَّع بنسيج العنكبوت وحدَه يعرف مجسَّات هذا الهذيان.
لم أصدِّق أنَّ القواربَ الَّتي منحتُها شارتي،
صارت تعومُ فوق يباس القناعة.
هذا هو عار حنيني،

تركتُه في سرِّ الملفَّات.
الوجعُ وحدَه صديقُ الطُّرقاتِ المغلَّفةِ بنظرة الخلف.
سأمضي في نفقٍ لا يوصلني الى الأخضر المستحيل
هذه بعض جدواي،
هُم... الَّذين قطعوا مشيمتي في أوَّل الصَّحو،
وتركوني أنتظرُ فوق خنجر الوقت،
لا أملكُ سوى كلماتٍ ذابلةٍ تخلَّى عنها ربيعُ الحبّ،
سأدفنُها في مقابر الابتسامة الأولى.
هذا زمن الخيانة الَّتي تجلسُ على عرش الذَّات،
فهبطتُ أفتِّشُ في صداِ الصَّومعة،
عن بقايا من الأهل،
وبرجوع انكساري،
حملتُ وَحدي صورتَكِ
أتحدَّى به قبائلَ الكفر،
ورحلتُ بمركب نقائك إلى جزيرة الثِّقة،
وأدَّيتُ صلاةَ الوصول في حَضرة ملامحك،
لكنَّ بردَ الانتظار هدمَ صورتي،
فعدتُ أتدثَّرُ بعباءة السُّؤال
حتَّى لو ضاعَت خيوطُ شمسكِ
عن الذي أسمَيتَه بقايا كهفي.

شعرَ الجوادُ بالإهانة، فذلك الوفيُّ نسيَه, وأهمله، وهجره, باحثاً عن المجهول وعظمة الوجود. وكانتِ الصَّدمةُ الكبرى, نورٌ عظيمٌ يخترقُ السَّماء, يسيرُ بسرعة البرق بألوانه البرَّاقة، ويغيبُ عن الأنظار. إرتعدَ الجوادُ خوفاً, انتفض منزعجاً, صهل وقفز, حرَّرَ نفسَه وأسرعَ هارباً, ابتعدَ حتَّى غابَ عن الأنظار... ولم تكن الجلبةُ سوى طائرةٍ حديثةٍ تخترقُ الجوَّ ليلاً.

يبقى (ساد) وحيداً, يقرأ لغة السَّماء, يستنجدُ بالسُّؤال, يحاولُ تفسيرَ ما حدث، ولا يبقى له سوى:
سقط سهواً، في دفتر النَّار، اسمي
والرّعاعُ ما صدَّقوا أن يحملوا،
فوق معاول الثَّلج، رأسي
قبائلُ الشَّمال أيَّدت بردي،
وقبائلُ الجنوب أعلنت حرقي
فبأيِّ آلاء خرابكَ ستمضي،
من ريح وسطي
إلى أعالي السَّيف المحتفل بعنقي
هذا هو الحال،
سأغنِّي أغنية الحلاَّج الأخير،
قبل دخول السَّوط عيني
طفولتي من زجاج،
خرَّبها الضَّوء
كلَّما أفتحُ واجهاتِها،
يبكي ذاك الإلهُ يومَ كان نادلاً عندي
وإذا نطقتُ بعض حرفي،
تبكي سمواتي
وقبل أن يطلقَ على الجدار رأسي،
تذكَّرت كلمتي الأخيرة:
إنَّ جسدي لون ذاك النَّهر
ووجهي،
مثل نعومة الفضاء
ومن صرختي سيهبطُ آخر ملوّن
يخطُّ لوحتي قبل أن يؤدِّيَ يمينَ قتلي في محكمة الهواء

6

يتعقَّبُ انحسارَ اللَّيل، وينتظرُ بحبوحة النَّهار؛ يركبُ الثَّرى، فتودي به ريحُ الكبرياء, تعصفُ وتزمجرُ فلا يُحسَبُ لها حساب؛ تختزلُ منه قوَّته, كما اختزلت منه سنوات انتظار العمر بأكمله؛ يعاندُها فتلاحقُه. فما كان له سوى الاحتجاج قائلاً:

- إنِّي وترٌ بلا عازف –
وحدي في خندق التَّأمُّل،
يشاركني هذا الخراب
ألملِمُه من مساحات بياضي،
وأودعُه في ذاكرة الجواب
أعدو مثل نهرٍ مجنون،
لا يعرف مساري
وهو الإدراكُ في لغة المصبَّات
مَن يمنحُني الآن موسيقى هذا الفيضان
وأنتهي من لملمَة شتات الخارطة
وأودعُ آخرَ صوتٍ عندي في حفلةٍ بلا كلام
إشاراتي سجلٌ وهمٍ كنتُ أنتظرُه
هذا حقلُ حروفي،
وَحدَه سيقرأ ما تبقّى من إنجيل الكلام
لا أريدُ أحداً يدفعُ آخرَ ما تبقّى من لحنه في سبابةٍ بعيدة
قبل أن أتركَ لحني الأخير
في وجوهٍ تحبُّ لحنَ الظّلام

تمنَّى لو نطقَ جوادُه معاتباً قبل أن يغادرَه! لو ربَّتَ على كتفه مهدِّئاً! لو زمجرَ كأسدٍ مهدِّداً! بل بقي صامتاً في ظلِّ السُّكون طويلاً, يتأبَّطُه زمنُ البحث، ونظراتُه المستحيلة تخترقُ الأفقَ البعيد. تُرى، ماذا أراد من البعيد؟ آهٍ لو كان يعلم!

وأعادته الذَّاكرةُ إلى الماضي, إلى ربيع العمر, إلى ذلك الشَّابِّ الوسيم الذي هربَ من العالم المُكتَظ.

بحثَ عن مستقبله في بلادٍ بعيدة, حيث الحرِّيَّة, والأمان، والسَّلام, حيث لا توجُّسٌ ولا قلق. هي فرصة وحيدةٌ للهروب من الخوف إلى الدِّفء: وصل سماءً واسعة, مُضيئةً بنجومها؛ استقرَّ واستطعمَ السَّعادة, أومأ إليها فأتته مُسرعَة, انطلقَ خلف الفراشات يلهو كالأطفال في حديقةٍ رائحةُ أزهارها شذيَّة, لا غبار ولا تراب, لا طين ولا دماء. تغنَّى بربيع الحكايات الذي ارتدى ثوبَ الصَّفاء...

لم تستطع الحبيبةُ منعَه، لكنَّها نادَته:
هي ليلةٌ واحدة، لن أبقيَها قيدَ الانتظار
أعدُك، عندما ينتهي النَّهار
أن أجلسَ قلبي على حافَّة المساء
مُرْني بسذاجة اللَّيل، ببلاهة الفجر،
أن أمرَّ بأناملي على صدغيكَ
لا تطبع لثمةً من فيكَ على كفّي
ولا تلدغني بلهيب أنفاسكَ على خدّي
لا تقرِّب صدرَك من نهدي
ولا تواجهني بنظرات شوقٍ حَيرى

أطلق (ساد) العنانَ لنفسه, خرج من الوجود إلى الحياة الأخرى, يلهو ويكتشف, يطمح للمعرفة والاسترخاء, وساعة الاختلاء تأتيه سادينا, فيحتضرُ أمام ذكراها:
مرَّةً لوقوفي اليوميِّ في طابور الأسئلة
أبحثُ عن جواب وجهك في مرآة الحروف
ومرَّةً أنا القادم من خلف صلبي
أنتظرُ صوتك القدّاس
سادينا، اهدري دمي، فهذا لك مباح
واعطيني ما تبقّى من وضوحي على مائدة النهار
إلهتي، عند قدمَيكِ يؤثّثون صالة الجمال

أو يحرسون عرشَكِ الأبديّ
يا إلهة البقاء، ماذا أفعلُ بما تبقّى منّي
صدِّقيني، هي آخرُ الخراب
لسنواتٍ سقطت من أصابعي
ومرَّةً، ليَقظتي، أمارسُ لعبة الحُلم العَصيّ
أجمع ما شتَّتَته عصا الأيَّام
ألملِمُ كلَّ هذياناتي في كأس اللّحظات
وأشربُ نخبكِ في عشائي الأخير
في محفل الصَّلوات
سادينا، هذا اسمُكِ أم الصَّدى
أتركيه في كأسي الأخير
هو ما تبقَّى من أفقي في ذاكَ الأزرق البعيد

7

يترنَّح بين الوتر والوتر, يتخبَّط بين الإيقاع والإيقاع، ويأخذه الحنينُ إلى بقاع ترابه بارداً, يغلق نفسه بين الصَّبر والشَّوق, تدحرجُه حيرةُ التَّقدُّم وتلطمُه الوَحدة, حتَّى وصلَ حانـة، وطلب كأسَين, شرب إحداهما وحدَّق في الثَّانية طويلاً. وكانت لحظةُ التَّوحُّد مع الحبيبة المتخلِّفة؛ إنتظرَها, أصرَّ على المُكوث، وتتابعتِ الكؤوس، والكأسُ الملأى تنتصبُ أمامه, تتألَّقُ لمعاناً وتسرقُ منه أوقاته، فيلازمُها حتَّى منتصف اللَّيل.

ثريٌّ هذا القابع خلفَ صباح اللّحن
يرتِّبُ أوتارَ العمر بالحكايات القديمة،
ويمتطي جوادَ الورق المخطَّط
بقهقهات الضَّفادع العانسات
اللاَّتي يؤسِّسنَ الصَّوتَ المُحبط

هو المتكرِّرُ في مرآته،
يرتدي قميصَ الأمس،
ويمضي في الشَّارع الذي لا يؤدِّي
كي يقصَّ على الجدار الذي ابتلى بحرفه الأوَّل
بعضَ أساطير الخراب؟
وَحدَه يحتضنُ عقاربَ التَّأخُّر
عن مائدة الاحتفال
لأنَّ القناعَ المؤدِّي إلى التَّصافح
تركَه على مائدة الولادة
سمفونيَّةُ الضَّحك على الأصنام
تبدأ بنزول الرَّأس على مسرح الألوان
وتكتملُ حكايةُ اللَّوحة المتبرِّعة بدم الانتظار
عشيقُها يجولُ الآن
فوق خارطة الأوردة
يبحثُ عن الصَّوت الذي ماتَ
في خنادق العشق
تاركاً آخرَ السُّؤال
في ألبوم الهذيان

إمتلأتِ الحانةُ بالنُّزَلاء, بحثَ عن وجه حبيبته بينهم! توقَّفت نظراتُه عند الباب, ولم تدخل! ولم يرَ أيَّ وجهٍ يشبهُها... صخبَ المكانُ فخرجَ (ساد) من غيبوبة الانتظار إلى غيبوبة السُّكر, صخبَ وصرخ, فرحَ وضحك, وصفَّق للعام الجديد:
سانتا كلوس
سيهبطُ من السَّماء يوزِّعُ الهدايا
وأمَّا أنا،
فسأصعدُ إلى السَّماء،
أعلنُ مأساةَ الحكاية

ويُكملُ متألّماً:
لا أعلمُ أين أنا،
وعلى أيِّ قارَّةٍ رُميت,
لكنَّ كلَّ الذي أعلمُه
هو أنَّ حبيبتي ستعفو عنّي وتأتي,
ستقطعُ شريطَ البُعد
فتصلُني من حيث لا أدري!
إفريقيا لا تُطفىء الأضواءَ
لأنّها تعبَت من اللّيل الدّائم
آسيا سترقصُ في منتصف اللّيل
بعد أن سرقَ البحرُ أحلامَها
أمريكا عاصمةُ النّاطحات،
الفقراءُ فيها بلا مأوى
القارَّةُ الهنديَّةُ جميلة،
ولكن، ستخربُها المفاعلاتُ النوويَّة
أستراليا فتاةٌ عذراء،
الشّعراءُ يحلمون باغتصابها
وأمَّا أنا،
فسأطفئُ نارَ قلبي
كي يحتفلَ العالمُ بحريقه
والعالمُ لا يحتاجُ الذّكاء،
طالما تحكمُه عصا الجفاء

إلتقتِ العيونُ وحيَّا الواحدُ الآخر. تناول (ساد) كأسَه الأخير، وخرج من الحانة وحيداً. بحثَ عن جواده, نسيَ أنَّه غادره, أطال البحثَ ولم يجدْه, لم يستطِع الاستمرار، فقدماه ترتعشان, وقعَ أرضاً وصوتُ الموسيقى المُنبعِث من الحانة يخترقُ أذنَيه. خيَّمَ السُّكون، وأصبحت الموسيقى كونيَّة. وكان آخرُ اللّيل, اشتدَّ البرد، وتوغَّل فيه حتّى العظام, أحسَّ بالاختناق، وثقُل في صدره. دفعته الرِّيحُ إلى زاويةٍ ما, لم يستطِع مقاومتَها. إستسلمَ لها متألّماً، وراح في غيبوبةٍ طويلةٍ دحرجته بين العصور... فأصبحَ عاشقَ كلِّ العصور.
عبرَ التّاريخ، وعَدا بين قرونه؛ ابتدأ كلَّ البدايات, حمل ذكرياتِه معه, فالذّكرى تحكمُ العقلَ والرُّوح؛ احتلَّ ساحة الحياة، وأرادَ أن يكون قدوةً لجميع العاشقين, لكنَّه أصرَّ دائماً على عدم بلوغ أيِّ نهاية!!!

حمل حجراً بين كفَّيه, أسماهُ حجرَ الوجود, لامعاً مختلط الألوان, قرَّبه إلى قلبه, قلَّبَه وأداره, أمعنَ النَّظرَ فيه, وكان، في كلِّ مرَّةٍ ينظرُ إليه، يكتشفُ شيئاً جديداً وكأنَّه يراه لأوّل مرَّة:
حجرَ وجودي،
ألتقي اليومَ بك،
على الرَّغم من تأخُّر كلِّ بداياتي.
ما حملتُه من داري,
ليس قصائدي،
ولا أوراقي,
ولا كتاباتي,
بل عجلة واحدةً
سأعدو بها عبر التاريخ.

وعندما استفاقَ من غيبوبة العشق قال:
والتقيتُكَ يا دليلَ البقاء,
أشعرتَني بالأمان،
وبأنّي لم أغادر كوكب الأرض إلى كوكب آخر,
الفضاءُ يُخيفني,
لا هواء فيه، ولا مكان للعشق,
فكيف تستمرُّ إنسانيَّتي من دون هذين الشّيئَين؟
أشعرُ في قربك بالاستقرار,
سأكونُ آلتَك وقيدَ معصَمك
طالما أجدُ استقرارَ الفؤاد بمعيَّتِك.

أيُّها الحجرُ الثَّمين!
قُلْ لي ما تكون
ومَن أتى بكَ إلى هنا؟
يا ابنَ الطَّبيعة،
سأشكو لك وأتظلَّمُ أمامك,
إسمَعني حتَّى النِّهاية!
تحجَّرَ العالمُ أمامي,
فقدَ رومانسيَّتَه والإحساسَ بالآخرين,
اختلت ثناياه من العاطفة,
وسواحلُ البقاء اكتظَّت بأسماك القرش المفترسة,
امتلأتِ الأرضُ بمستنقعاتٍ من الهلاك!
تقهقرَ الرِّجالُ واستسلموا للنِّهايات,
امتلأ الكونُ عويلاً,
انتحبَتِ النِّساءُ على فقدان العزيز,
ومات الأطفالُ جوعاً.
سأكونُ آلتَك وأدوِّن ما تقرُّه من اقتراحات,
دعنا نخطِّطْ لمشروع مشترك
من أجل الآخرين
ومن أجل الخلود,
سنكتبُ خطاب معرفة,
نَدَعُ اللُّغة الجميلة تصحِّحُ الأشياء,
سنرسلُ الرَّسائل الكونيَّة،
نَدعو فيها إلى المحبَّة,
فيتعانق السَّاحلُ والجبل,
رسائلُنا ستسهِّلُ تحريرَ العُقد وفكّ الرُّموز,
فالعيشُ من دون رموز وتعقيدات أهمُّ أسباب السَّعادة,
ستكونُ السَّعادةُ كونيَّة والحبُّ أبديًّا,
وستغمرُ العالمَ لغة جديدةٌ عميقة حالمة إنسانيَّة...

يتلاحمُ الكلامُ في فم (ساد)، والحجرُ ساكن. يقفُ متحفِّزاً يتكلَّمُ ويَعِظ, وكأنَّه على مسرح, يتحدَّث, يُعلنُ وينبِّه, يفقدُ انضباطه، فتزيد حركاتُه, يؤشِّر, يؤمئ ويصرخ... بُحَّ صوتُه... وانحبسَ داخل حنجرته, لم يستسلم, استمرَّ بحركاته الإيمائيَّة، يتشبَّث ويُعزِّز... خارت قواه ولم يعدْ يحتمل البوحَ لأنَّه أدركَ أنَّه يبوحُ بكلِّ مختلجاته لنفسه! ما من أحدٍ يسمعُه, وليس هناك مَن يكترثُ له, حتَّى الحجر الصَّامت أمامه... بكى مرارة، وتحوَّل غناؤه نحيباً... فقدَ الإحساس بالوجود... بالزَّمان... بالمكان...

حلَّ المساء، ورحلتِ الشَّمس, صوتٌ من بعيد يُناجيه, صوتُ سادينا:
أستضيءُ بفتيل مصباح
خبا قبل آلاف السِّنين،
ألوِّنُ عينَيكَ من نور الشَّمس
وأتسوَّلُ عبقَكَ.

ساد: *سئمتُ رايتي لغضب الطَّريق وبياض النِّهايات.*

سادينا: *تبني آمالاً في بحورٍ ثائرة،*
الأيَّامُ يلفُّها دوارُ الموج،
انحسارُه وهديرُه،
وتبقى الأزمنةُ قيدَ إعصار

ساد: *لستُ مدرَّباً على الصّراخ،*
فوضَّحتُ بدم المشيمة
هذا الخروج على مألوف عدم التَّرتيبات
الأبُ العامُّ
وضعَ رأسي على طاولة انتظاره
ساعةً ليقظته القادمة

 © **Tous droits réservés**

ومنذ أوّل عدم الصَّباح،
دُوِّنتُ في متاهات الأهل
الأمُّ العاجزةُ عن التَّصريح
هي التي تعرف
ملفَّاتِ هذا الانتظار
بعدها صرتُ غباءً للنُّعاس
وابنًا لجداولَ لا تأتي
كيف مات الصَّوتُ في كنز الحسابات
ولماذا هو يطلقُ ذقنَه كي يلفَّ أصبعَ صوتي؟
وأنا لم أتدبَّرْ أمرَ رؤاي
الذِّئبُ الذي روَّضوهُ على نَهشي
مُدوَّنٌ الآن في دفتري
يتسلَّى بحروبي في حديقة الأسماء
وَحدَه له العنانُ في تقرير العواء المؤجَّل
ماذا دهاك يا ابنَ النَّاطقين
تنخرطُ في زحمة الشُّرود
ترتِّبُ ضحايا المكعَّبات،
والدَّاخلين في علبة الوجود
ألا يكفي أنَّك تقرأ سورتَك الأخيرة
في حفل موسيقى العبيد
وتقفُ وَحدَكَ في هذا اللَّحن الأخير
ليكُنْ ما تجلَّى من فطور الضَّوء
في صحَّة ظلام المحنة
كان ممكنًا بنصف سيفٍ خشبيٍّ
أن تحكمَ مطرَ القبائل
وتمضي برفيق الزَّمن الذي شنقته عقاربُ اللَّحظات
كيف ستقود جَملُ الغباء
إلى صحراءَ بلا صحراء
ولكَ من شَعر الاتِّهام
نسيجٌ يلفُّك في حضرة الفيافي الحمراء
والجزَّارُ المرتبكُ بذبحك
يتسلَّى بأغاني عنقك الصَّديد
وكلُّ ما يَحلو للخنجر نايٌ جميلٌ
لعزفٍ في فراغ الفراغ
هي اللَّيلةُ الأخيرةُ لدفن السَّراب في مقبرة
تعجُّ بموسيقى دموع البحر
هذا الأزرقُ النَّازلُ بفرشاته
يكونُ معبدَ الرَّحيل
وحين ترتدي بقايا رأسكَ
ستلبِّي طلبَ الحقائب
وتمضي بها إلى نهاية الأجراس
التي ستُعلنُ إمبراطوريَّة عدمك
في مملكةٍ لم تكُنْ في حسبان الآلهة
وعلى شاشة الفوضى
تقرأ رسالة التَّائبين عن البَوح
هذا بوقٌ جميلٌ يليقُ بهذه المَشارق

8

جبلٌ عملاقٌ يسدُّ طرفَ عينَيه, يتشبَّث في اللاَّمَرئيِّ والبحثِ عن المجهول, يتحوَّلُ المكانُ البعيدُ محفلَ تأمُّلٍ ومنبعَ إرهاصات. لم يستطِعْ كتمَ نواياه, لن يضمِّدَ جراحَه ويقفَ معصوبَ العينَين أمام ذلك العملاق, سادِدِ المعرفة وحاجبِ الرُّؤية, لا وألف لا! لن يؤجِّلَ نواياه في اكتشاف العالم الجديد خلف ذلك المتوطِّن!

كانتِ الشَّمسُ قد تركت بعضَ نورها على حوافِّه, وسرقَ الظَّلامُ بطنَه المشجَّر بالسّواد.

يبتسم ويمتلئ قلبُه حبوراً: سيقتحمُ المجهولَ للحال, حتَّى لو اختفت في ساريته العاصفة، سيتحداهُ, يكفيه ما صَمَت, سيذهبُ إلى حيث تأمرُه حواسُّه, سيتحسَّسُ ببطءٍ طريقَ المعرفة, سيُجانحُ المسافات, ويركبُ العتمة، ويستوطنُ شبحَ النُّزوح, حتَّى يُعرِّيَ المجهولَ من ثوبه.

سارَ في جنح الظَّلام, تراقصُ الخطوات بشَرَهٍ, وتهادى على حُبيبات النَّدى. فجَّرَ طاقاتِه, ابتلعَ الخوف, تسلَّق الأعالي, اقتحمَ المسافات, وكانت بدايةُ الحكاية:
قُرعتِ الطُّبولُ على أبواب المدينة إشارةً بوصول غريبٍ أسمر. مياه النَّهر تشوَّقت لشاربٍ ظَمِئ: مالَ, شربَ، روى عطشَه، فبانَت له زهرةٌ ذهبيَّة تلألأت من داخل الماء بشعرها الذَّهبيّ. تحوَّلتِ الزَّهرةُ فتاةً شابَّةً جميلة. مدَّت له يدها، وبطلعتها البهيَّة ابتسمَت للغريب القادم... نادته بصوتها الرَّخيم:
تعالَ نغفو على أجنَّة الرِّيح
وفي سندس الورق نعدو بأروقة الهَمس
وعلى العسجد نملي تسبيحاتنا
تعالَ نركب الثُّرى، ونلعب بنار السَّاعات
بعيداً عن اكتظاظ العصور، وعسر الأيام
ويكفي لمصائرنا الانتظار
قُلْ لي يا ميسم، وناديني باسمي الأرضي
الذي نسيته وضاع مني
تعالَ نعدو وكُفَّ عن الصَّمت قبل رحيل المَغيب
فلم يتبقَّ لي سوى بعض اللَّحظات

رمَت بشِباكها نحوه، فأطاحت بالمحروم الذي أطال التفرُّسَ بها, هامَ بأحلامه وذهبَ بعيداً, استحى وتوارى, أغمضَ عينَيه مُسترخياً مفكِّراً, ثارت أعماقه واتَّقد، فاسترسَلَت قائلة:
أصغِ، فلديَّ المزيد؛
إستمِعْ، ربَّما تداعبُكَ بعضُ السُّطور
لو تبدَّلتِ العصور، وانهارَت،
لو تدرك خاتمتي، ولعنة المصير
لو أنزل حيث يحرُّ فؤادي،
لو لم يكتمل البَدرُ وتشهر أمامي سلاحَ الرَّحيل
لو لم يأخذني المدُّ إليكَ،
سأطوي مطية العذاب في قلبي،
وألقي عبأ الهجر في المحيط السَّادس

الصَّمتُ يلازم (ساد)، ويبقى مشدوهاً أمامها, تأخذه الدَّهشةُ والتَّساؤلاتُ تسلبُ عقلَه, لا يحرِّكُ ساكناً فيما تستمرُّ هي في مناداتها:
نزوةٌ تملأُ عقلي،
وكلِّي يربضُ على كتف الانتظار،
وردتي تغمرُها المياه
ترتعشُ لجنَّة،
وتنتشي لكون مجهولٍ
يعوِّضني عن كلِّ هذا الماء
أخشى من يوم الغدر،
ومن يومٍ يُصبحُ فيه الكون كلُّه
مياه في مياه

أراد (ساد) أن يقولَ ما يشاء, فقد هامَ فيها وأصبحت ملهاةَ روحه من أوَّل اللَّحظات, تلك السَّاكنة قارورةَ العجب تُحاكيهِ في لغتهِ وتأتيهِ من غير ميعاد, كلامُها يصلُ قلبَه وحكايتُها تجرح أناته, وعندما رآها تقترب، طفتِ الآهةُ رأسَ قلبه.

عبرت حدودَ المحارة والتقتِ النَّظرات من بعيد, اتَّجهت نحوه, اكتنفه الظَّمأ. حائران والسَّعادةُ قريبةٌ منهما! تفصل بينهما عدَّة أمتار, لا مجالَ للتَّردُّد، ولا وقتَ للعزوف. (ساد) يمتلئ سروراً, تحرِّكه حشرجة غريبة وقشعريرة لم يعهَدْها من قبل, أراد أن يملأ الكونَ صراخاً فملأه:

فتاةَ المحار،
يا مَن تقفُ على البحر،
بعيداً عن ذات الرَّمل،
هذا الذي يُشفقُ على حنان السَّواحل،
ويسعفُها بهذا التَّجلِّي الذي لا نظيرَ له،
هذا الأفق الممتدِّ من ذات السَّاحل
ومن ذات الرُّوح إلى ذات السَّاحل،
كيف تكتب الأشياء،
هذا سؤالٌ على الرَّمل
أم على صفحات اعتقدَها البعضُ هي البياض،
أم هي الرُّجوعُ إلى ما خرَّبته العواصف من الأيَّام البالية؛
أم وأم، وكم أم،
حتَّى يعرفَ هذا الذي ينقرض
بتجواله الخاصِّ بين عنف صخب البحر،
وعنف القرار السَّاكن في الذَّات.

سادينا: *مَن تكون؟*

ساد: *في البدء، من سَهو الله،*
ولدَتِ الغيمةُ ابناً غير شرعيّ،
أسمَتهُ ابنَ اللاَّاكتراث،
واحتضنته أزقَّة ضيِّقة،
ولم ترصفه أرصفةٌ معيَّنة.
وراح يعدو بلا هدف،
يبحثُ عن الأمِّ الأولى،
وانتهى في بلادٍ هي موطن الأمَّهات.

سادينا: *من أي وطن جئتَ؟*

ساد: *السّرَّةُ التي انقطعتُ منها*
تركَتني مشرَّداً للبحث عن سرَّةٍ ما،
فسقطتُ في حضن أمِّي الكبرى،
أسميتُها سادينا.

سادينا: *لماذا لم تستطِعْ إيجادَ هويَّتَكَ حتَّى الآن؟*

ساد: *كانتِ الواجهات...*
التي أسجِّلُ اسمي على جدرانها بحجرٍ ضائع،
وأرسم بعض مشاكساتي،
ربما اعتقدتُها هي محطَّاتي على جدار الانتظار،
وأنا الوحيد العدّاءُ الذي يعدو كثيراً،
ولا يعرفُ خطَّ الوصول في عالم بلا سباق.

سادينا: *إلى متى ستبقى تعدو؟*

ساد: *سأعدو مثلما تعدو الكرةُ الأرضيَّة،*
وحين تتوقَّفُ هذه الكرة الفاسدة،

سأحلّق عدواً جديداً يليقُ بخرابي.

سادينا: ما السرّ الذي يحتويكَ؟

ساد: لأنّني لم أتوضّأ ولم أصلِّ من أجل عالمٍ يُحتَضَر.

سادينا: السِّرُّ أكبرُ بكثير!

ساد: نعم، يكمنُ في قلب بعيد،
وللآن ما زلتُ أعدو حتّى أصلَ خطوطَ الخراب.

سادينا: لا أفهمُكَ!
أفصِحْ عن مختلجات قلبكَ,
فأنتَ في أمان.

ساد: سرّي قابعٌ في سرٍّ أكبر،
وكي أبوحَ بهذا السِّرِّ الأكيد،
أحتاجُ إلى سرٍّ بسيطٍ
هو مفتاحُ الدُّخول إلى القول،
وهذا ما لا أستطيعُ قوله.

سادينا: قُلْ ما تذكرُه!

ساد: قالتِ العرَّافةُ يوماً لأمِّي:
ابنُكِ عليل، لكنَّه سيُعلُّ الدُّنيا.

سادينا: ووصلتَ حيث سادينا المدينة!

ساد: هي جُزئي المقدَّس في الدُّنيا،
وبقيتُ أنادي: سادينا،
القربُ يبتعد،
لا شمس تَحميني،
ولا هدوء الضَّباب.
سادينا،
أنا المعلّق فوق شمَّاعة قُبلاتِك،
امنَحيني هذا المطر،
من فيكِ،
كي أسقيَ ما حلَّ في روحي من يباب.
سادينا،
لو تقصِّرين الطُّرق كي تصلي جفافي،
عندها سأعلنُ مملكتي،
وماء أرضي،
وأقبِّلُ هذا الرَّذاذَ البعيد،
وأشكر ما فعلته السَّماء.
سادينا، أنتِ جُزئي،
تعالي نتشاركُ
ما تبقَّى من جزء الحياة.

سادينا: إنكَ تطأُ الرَّملَ
وأنا ما زلتُ أسكنُ فيضان الماء.

ساد: سلالة الرَّمل عفويَّة جدّاً؛
والذين تركوا آثارَ أقدامهم على قدَّاس الرَّمل،

كانوا من حرَّاس الجنَّة.
هذه الجنَّة لا تستقبلُ بعضَ غضب كراهيَّتنا،
ولا تستقبلُ بعضَ ما ندري؛
لكن، في النِّهاية،
تدعو إلى الصَّحو،
لا بدَّ أن نستقبلَ صباحَ البحار.

9

إنحسر دمعُ سادينا, فالطَّريق بعيد, طويل, متشعِّب, مليء بالمتاهات. عاشت في الماء ولن تتحمَّلها الطُّرقات الجافَّة لو طالبَت بحقِّها من الماء, ومرَّت على شفاهها الأحزان مرارة الكلمات, تبدَّلت خطواتها, مغرمة, وتحوَّلت أجنحةً ملأى بالانتظار, انكسرت الحياة أمامها وتدنَّت رغبتها في عشق النِّهايات. أقسمت على توقُّف العمر، وعلى ألاَّ تكون على هامش الذِّكريات. ستبقى شابَّة، وستكون قدر المتسوِّلين في الحياة, وقدر الرَّاحلين, وقدر المقاتلين ومن سيصاحبُهم الحبق في حياتهم الأبديَّة, ستكون لمَن يبتغي العلياء, ولمَن يختار طريقاً أخضر, ولمَن يحمل أشواقاً مكحَّلةً بالذِّكرى, ستمحي بمائها أقداماً مدجَّجةً بالدِّماء, وستخمر النَّبيذ في الخوابي لسكارى العشق والهيام...
رحلت, اختفت عن الأنظار سريعاً, وكأنَّها لم تكُن!!!

بحث (ساد) عنها تملأه الخيبة:
لو لم ألتق بكِ يا حوريَّة بلا إسم,
لسمَّيتُ كلَّ الأشياء باسمك.
أرى وجهك يحلِّقُ على الطَّبيعة,
لو أستطيع رؤية يدكِ فقط,
لأتحقَّقَ من وجودكِ! خيالكِ!
سأسمِّيه قدَّاسَ الكون.
أنا غريب الكون أتحسَّسُ الحياة من نظراتكِ,
أعيشُ خلوة طويلة مع نفسي,
توقَّفت عقارب الساعات،
ولا أستطيعُ الإجابة على أيِّ سؤال,
أتسوَّلُ وجهَكِ ولا أجدُه,
لا تلقي لعنة البؤس عليّ فأعيش غريباً بلا كيان،
فاقد الإحساس بأيِّ جمال.
أنفاسي متوقِّفة منذ رأيتكِ,
لا أستطيع السَّيطرة على الكلام!
أنتِ؟
ماذا أسمِّيكِ يا مبتغى عمري،
وماذا أسمِّي مكان اللِّقاء؟
سادينا؟ نعم، سأسمِّيكِ وأسمِّيه... سادينا...

يمشي كالمجنون في شوارع المدينة، ويرجع ليرتاحَ في مكان اللِّقاء. قلبُه المسكونُ بها ينتظرُها, جسدُه يتحدَّى الزَّمن, وروحُه تحومُ حولها. يحسُّها قريبة، ويستشعرُها بعيدة, يسمعُ خطواتها فترتعش فرائصُه, السَّماء تنبئُه بقدومها، وتحتفلُ معه النُّجومُ فتضيء المياه الصَّاخبة وتهدِّئها, تبدَّلَ اللَّيلُ المُعتمُ وأصبح مثل النهار. إكتظَّ المكان وامتلأ بالحُفاة وبأيدٍ قويَّةٍ تحملُ المشاعل، فيما أخرى تتأبَّطُ أدوات العزف.

ابتدأتِ الاحتفالات, إنَّه يومٌ سنويٌّ مقدَّس, يومُ فتاة المحارة, تزورُ الماء وتوزِّعُ ابتساماتِها على البشر, تحاولُ إعادة البسمة على وجوههم، وتحاولُ أن تنسيَهم مآسيَهم وأحزانَهم.

تمايلتِ الأجسادُ نصف العارية, ورقصت رقصتها التَّرحيبيَّة المُعَدَّة لهذا اليوم. إهتزَّتِ الخلاخيلُ بأجراسها, ونشرتِ العجائزُ القلادات الصَّدفيَّة في الهواء, واستعدَّ الرِّجالُ لصحب المحارة من الماء. وزّعت كؤوس الخمر، وعزفت الموسيقى صوتَ تنبيهٍ تعلن به ظهور فتاة المحارة. إنَّها لا تشبهُ عروس البحر، ولا نساء الأرض, ربَّما سكنت مجرَّةً سماويَّة ومن نشوة جمالها حسدَها سكَّانها، اختلَّ توازنُها، فسقطت في النَّهر. لكنَّ ساكني المجرَّات يمتازون بقبح أشكالهم, والمحار ساكن البحار، فما الذي أتى بها إلى النَّهر؟

يمضى (ساد) جلَّ وقته في السُّؤال, يخمِّنُ ويحاولُ فهمَ سرِّ تلك الجميلة. عرف أخيراً أنَّها فتاة المحيط, ضلَّت طريقها, تاهت في المتاهات, اختبأت في الموانئ والمنارات العالية. هبَّت رياح قوية, اهتاج البحر وغمر المنارة التي سكنتها؛ ومع مرور السَّنوات تحوّلتِ الكائناتُ الحيَّةُ أصدافاً، فتكوَّنت منها تلك المحارة التي اختبأت فيها سادينا الفتاة.

سادينا, يا مَن تقفُ على جراح البشر كصنم, تحبسُ دموعَ وحيدٍ ينتظرُك، فيتأخَّر عنِّي مطرُك؛ يا فتاة الخصب، لا تغادري قبل أن أزرعَ داخلكِ تأوُّهَ العاشقين. إيَّاكِ وأن تشدِّي رحالكِ وترحلين قبل أن تروي ظمإي, ارويني من شرابكِ فأذوب بكِ عشقاً, فأنا المعذَّبُ بتأجيل مواعيد الوصال, متى ستبعدين الآهة عن قلبي, متى ستطرقين بابي؟

ودعاها للانضمام إلى أنشودة لم تكتمل:
ساد: *دعيني ألملِمُ حطامَكِ،*
فأنا عابرُ سبيلٍ في أشدِّ الحبّ،
ألملِمُ كرستالَ العشق،
وكلَّ شيءٍ جميل.
يا أنتِ،
ماذا أفعلُ بقلبٍ يبحثُ عن وجهٍ تخافُ منه الرِّيح،
أنا أعدو في قارَّة الجمال
كي أرى وجهَكِ،
واستريحَ.

سادينا: *لا تُتعب نفسَك في الصّراخ،*
إنِّي أراكَ واسمعكَ.
إن لم أرَكَ في عيني،
أرَكَ في هواكَ.
صدِّقني،
سأعدو بقاعَ الأرض أحملُ راية حلمي،
وأحملُ ذكراكَ،
أنتَ الوحيد الذي أنتظرُ وجهَكَ،
وما إن أصلَ إلى خطِّ النِّهايات،
سأقبِّلكَ وأبدأ عالمي معكَ.

ساد: *يا وطنَ الحبِّ،*
يا وطناً انتظرتُه،
وغامرتُ بالجوازات،
دخلتُ حدودَ روحك،
وأنا السِّندباد.
وجهكِ،
بعض ثروتي تبدأ من كنز روحكِ،
وهذا الجمال،
أنا على مشارف أسئلة البحر،
وليس عندي من جواب.

سادينا: *لو تعلم ما تركته في قلبي المحارات،*
الغروبُ عندي دفترٌ جميل،
تعالَ دوِّنْ ما تركته الرِّيح،
أو بعض غضبها في قلبي كي أستريح.

ساد: *سرقتُ النّعاس،*
ووضعتُه في جيبي
على أمل أن يأخذني القطار إلى محطّات.
لا أدري، كنتُ في غيبوبة النَّدم
حين عرفتُ أنَّني أمضي بلا عينٍ تدري،
فعدتُ أدراجي،

أهرولُ نحو سريرٍ نسيتِه،
وعرفتُ بعض فجري،
وألقيتُ بوجهي على وجهي،
فرأيتُ أن صبحي ضاع.

ساديناً: *يا عابر القارَّات،*
ترمي بوجهكَ على محطّات الانتظار،
في فجر الثّلاثاء نادَتك ابتساماتُ النّهار،
كيف تختلي في محطّة الشّهوات،
والغضب داخلكَ تزهق روحه الآلهة،
وتفرُّ من مكان المحطّات،
وتهرب إلى حضن الحبيبة.
يا عابر القارَّات،
ماذا عندكَ من الانتظار،
وكيف تترك وجهاً عبرَ محيطاً بلا جهات،
وأنتَ النّازل بعباءةٍ من جلال السَّموات.

ويصمت (ساد) أمام عباراتها, يتحكَّم بسحابة من الذِّكرى تمرُّ في خاطره, ترحلُ به أفكارُه حيث المُقدَّر, والقدرُ المُلحُّ والسَّائل إلى هلاكه, لا يستطيع التَّخلُّص من أصواتٍ تأتيه من بعيد, وتحتلُّ عقلَه ذكرى زميلٍ شابٍّ أقدمَ على الانتحار بسبب العوز والفقر المُدقع الذي ألمَّ بالبشريَّة الضَّعيفة, فقر مقصود ومُبَرمَج خطَّط له الحكماءُ المستبِدُّون, وانهماك القلوب الضَّعيفة التَّفكير عن كيفيَّة الحصول على اللُّقمة, توع من الإلهاء والعمى يتقنه أصحابُ النُّفوذ ويؤدِّيه المُحتاج على مسرح الوجود باتقان! ويستغربُ (ساد) نجاتَه, ووصولَه إلى هذا المكان الجميل, بعدما استنفدت جميع طاقاته من المشاهدة وتحويله إلى شاهد عِيان, يكتفي بالمشاهدة ويزداد إصراراه على البحث عن الأفضل وعن الحقيقة الكامنة في دواخل النَّفس العزيزة الصَّامدة أمام مغريَات الحياة, والمجتمع التَّافه، والقوَّة الخارقة التي تحرِّكُ الأشياء الصَّامدة والجامدة.
وعندما وجد الحبيبة أحس بالسلام النفسي وضرورة المصالحة معها, اصرار لا بد منه من اجل نسيان الماضي الموشوم, وتحويل الدموع الى قطرات من ندى تنعشه في ترحاله, والأمل الى اصرار وتحدي .

أطال الصَّمت, وعلق السُّؤال في فم ساديناً:
أيّ جمادٍ هذا،
بلا أصوات،
كيف أستنطقُ حجرَ الجباه
وأنا أتجوَّلُ في ممرَّاتٍ لا تعنيني فيها فوضى الكلام.
أنا غير معنيَّة بانكسار الريح،
فلماذا يحطِّم زجاجَ قصائدي،
وأظلُّ ألملِمُ زجاجَ الكلمات؟

ساد: *حلمي الأوَّل نزل،*
من دون دراية،
يحلمُ بأكذوبة الرَّاحة،
وراح يجمعُ كلَّ ريش الأرض
كي يصنعَ طيرانه الخاطئ.
كيف يطيرُ في عالمٍ بلا فضاء،
هذا المتعكّزُ على ظلّه،
يبحثُ عن شريكٍ لجنّاتٍ بعيدة،
سلّمني مرَّةً واحدة،
هذا هذيان الجنح،
كيف أرحلُ بأرَقي،
هذا الذي أزاحَ عنّي رؤية الفضاء.
كم قلتُ لكِ، يا أنتِ،
إنَّ الشّمع الذي أصعدكِ
هبط بكِ إلى سؤال الإدراك
ابنُ فرناس قبلكِ،
صعقةً أضاعت كلَّ الآتين،

والرَّاحلين،
عن لغزٍ سمَّيته سَماكِ.

سادينا: دائماً، لي قاربٌ أتجوَّلُ به داخلَ روحي،
واذا ما أحسَستُ أن قاربي لا شواطئَ له،
سأعلنُ ساعة التَّوقُّف،
وأتركُ للصَّائد الماهر
أن يضعَني في سلَّة صيده،
كأيِّ سمكةٍ بلا حياة.

ساد: ما الذي يُحييكِ يا سادينا؟

صمتَت أمام سؤاله, فأعادَ الكلام:
إزحَفي بهواكِ إلى نهدَيَّ،
وانهضي بنهدَيكِ إلى قوامي،
أفرشي جسدَكِ على جسدي،
وافركي نعومَتَكِ بخشونتي،
لا تخشي غيرةَ ضعيفي النُّفوس،
ولا تغضبي من طول الانتظار؛
أفرجي عن غضبكِ،
إرميهِ للرِّيح،
واتركي ما أنتِ فيه من سَئَمٍ ونَحيب.

سادينا: هذا نصفُكَ الشَّرقيُّ
يُمطر أشياءَ في محطَّاتٍ مُغبرَة،
وبوجهكَ الشَّرقيّ،
أنتَ النَّازل من دمع الانتظار
تلملمُ أوراقكَ المبلَّلة.
ماذا يفعل الهاربُ إلى المعرفة مثلك
غير الانتقال إلى الضفَّة اليابسة؟
هو الاختيار،
هو الرَّحيل إلى نصفكَ الغربيّ
الذي جفَّت فيه أنهارُ الذَّاكرة.
رحتَ ترمي في الهواء الطَّلق
ما تركَه الإعصارُ أوراقاً منكسرة.
ماذا يفعلُ بشريٌّ معتوهٌ مثلك
في مناطق التوديع بلا تذكرة،
فيصرخ:
أنا نصف كرة أرضيَّة
حلَّ بها الجفاف
تنتظرُ مطرَ الآلهة
أيّ جنونٍ هذا
يعصفُ في جسدٍ يقفُ في مركز التَّلويح
لا محطَّات له،
ولا قطارات تأتي
غير هذا التَّقيُّوء المريح
في عالمٍ ماتت فيه الصّحوة العابرة

ساد: هذا... مسرحُكِ يا سادينا،
تعالي نغنِّي أغنية اليباب،
إنطقي بوجعِ شعركِ كي أراكِ.
سادينا، البحرُ لا يعنيني إذا وجهُكِ مات؛
قولي أيَّ كلامٍ،

وأعيدي لي بعض ما فات.

سادينا: *لستَ وحدَك في الطَّريق،*
ها أنذا أهبطُ بجلال عيني
كي أضعَك تحت جفني
وأمضي في شارعٍ
سمَّيْته أنتَ طريقَ الخلاص.

ساد: *مدوّرة حياتي،*
هكذا أحلمُ كما أشاء،
وحين أمدُّ يدي كي أمسكَ بعضَ حبِّي،
أسقطُ من نومي على حلمٍ يشاركني هذا الفراغ،
وأصرخ ملءَ صوتي:
سادينا، تعالي،
هذه مجزرتي، قلبي أصبح كلُّه أشلاء.

سادينا: *لو تعرف بعض بعضي*
لانهارت كلُّ الكائنات.
يا ساد، ها أنذا أمُرُّ في خلجانك،
لا توقفني، إنَّ التوحُّدَ فيكَ
مدخلٌ لقراءة كلِّ ما يجيشُ في ذاكرة الأنبياء.

ساد: *لملمي بعضاً منِّي*
كي أفيقَ وأتركَ لكِ في ذاكرة البحر،
هذا المحار.
سادينا اقتربي، ولو قليلاً،
إنَّ بعض الخراب في حبِّكِ لي سيكونُ شفائي.

10

تراهُ (سادينا) بلون الشَّمس, شاحباً, تعباً, منهَكاً, ويراها هو في عيون كلِّ النَّاس. لكنَّها لا تشبه أيّاً من النَّاس! يانعة, شهيَّة, غضَّة, جميلة. انحنتِ الشَّمسُ على جبينها, غمرت حاجبَيها, شعَّ وجهُها كالنُّور, أغلقت عينَيها فالتقت رموشُها, وبدَت كفراشتَين متوَّجتَين. أصرَّ على الاقتراب منها وتقبيلها, أخذها من يدها, فأصبحت قريبةً من قلبه, حملها كطفلة ووضعها في ظلِّ شجرة معمِّرَة, بحث في وجهها عن مصدر كلِّ هذا الجمال! علَّه يكتشفُ كنهَ تلك الحوريَّة, أراد تقبيلَها، فاعترضت قائلة:
لا تفعَلْ!
أعلمُ ما يدورُ في خلدكَ!
إيَّاكَ وأن تبحثَ عن أشيائي.

أخذتهما نسمةٌ عابرة, احتجبتِ الشَّمسُ خلف سحابة, تساقطتِ الأوراقُ الخضراء، فغطَّتهما, ترنَّح الجسدان على زقزقة الطُّيور وحفيف الأوراق, رقصا مُلتصقان حتَّى بلوغ اللَّيل منتصفَه, وكانت بدايةُ سنةٍ جديدة.

ساد: *سيتزاوجُ العقربان بعد قليل،*
وأمَّا أنا
فسأطلِّقُ دورانَ الأرض،
بعد لحظات سيسقطُ العالمُ في كأسي،
سأشربُه على نخبِ سقوطنا سويَّة.

وكانت (سادينا) تتلذَّذ على سقوط عامٍ وولادة آخرَ كأوراق الشجرة المعمرة, تنحني لكلِّ ورقة, تتفرَّسُها, ترافقُ سقوطها حتَّى الأرض , فلكلِّ واحدة ذكرى، ومعنى, وتمعنُ النَّظرَ والسَّمعَ في ما يحملُه الصَّدى وسقوط الكلمات الحيَّة. تزدادُ تألُّقاً, وترتفعُ غروراً على سقوط حبيبٍ وَلِهٍ في حبِّها، وتنتظرُ المزيد.

ساد: *عندما تدقُّ السَّاعة الثَّانية عشرةَ ليلاً*
سيحتفلُ الأطفالُ في بلدي،
وإنَّما، على أجراس الانفجارات.

تنتفضُ منزعجة, تستفيقُ على صوت مرير معذّب جعلها تسترجعُ ذكريات أعوام مريرة مستمرَّة تمرُّ على البشريَّة, وتابع:
أهلي لا يعرفون للعام بداية،
لأنَّهم مُدمنون على موسيقى النِّهاية

إنزعجت من كلمة النِّهاية, لا نهايات في حياتها, فقط تتوقُ للبدايات, وتابعَ مقاطِعاً أفكارَها مجدَّداً:
الشَّاعرُ يحتفلُ برأس السَّنة،
لكن، لا أحد يحتفلُ بحريق رأسه
يُصرُّ على تذكيرها بسنوات العذاب التي مرَّت عليها،
ويحرقها بسقوط الكلمات.

تابعت حركات شفاهه بنظرات مُتعَبَة، وعادت بها الذَّاكرةُ إلى هناك, إلى البعيد, إلى الخوف, الأحزان وانتظار الأمل الذي تأخَّر, إلى الطُّفولة وفتاةٍ نحيلةٍ تبحثُ عن شيءٍ تأكلُه! إلى لقمةٍ ربَّما نسيها أحدهم في سلَّة القمامة! إلى أمٍّ فقدتِ الحماسة في الحياة وانهمكت في البحث عن زوجٍ فاقدٍ العقلَ والضَّمير. كيف تستطيع تلك الطِّفلة تعويضَ ذاتها المراهَقَة؟ لم تجِدْ سوى طريقٍ واحد... الهروب منها... أي الذَّات... أمضت وقتها في البحث حتَّى سُرقت منها الطُّفولة، ووضعتها السَّنواتُ قيدَ الانتظار, تتسوَّلُ الحياة، وتُنشدُ الرَّأفة والرَّحمة, لم يسمَعْها أحد، ولم ترأف بها الخطواتُ التي أودت بها إلى بحرٍ من التّجوال, حتَّى وصلت إلى مكانٍ واحدٍ ما زال يحتلُّ ذاكرَتها, حملته معها حيثما سرت. إحتلَّها وأسرها, فيه بدايتُها, استمراريَّتُها, مبعثُ روحها، ومنه انطلقت أوَّلُ معزوفاتها...
تخترقُ قريةٌ تجاورُ البحر، وناسُها يتجوَّلون على الشاطئ حتَّى الصَّباح, يستدركُها صوتُ حارس القرية يستدعيها للاقتراب! تهربُ من نظراته الباحثة, يقتربُ بخطواتٍ واثقة, يفركُ كفَّيه ويُطلقُ زمجرةً عميقة, يُعاودُ تكرارَ الزَّمجرة فتقفُ أمامه حائرَة, يثورُ حلقُه غيظاً وترتجفُ أمامه كقطَّةٍ غريقة! يعبسُ ويلتصقُ حاجباه، فتنكمش مستسلِمَة أمام ذلك العملاق الذي استطاع أن يُمسكَ بأذنها اليسرى, وبلطفٍ داعبَها مُعاتباً:
لِمَ أنتِ حزينة ووحيدة
يا أيَّتها الجميلة الصَّغيرة؟

تمنَّت لو تختفي بحضنه, أن تغمضَ عينَيها وتنامَ نومَ الطُّفوله كلّه! لو تضع رأسها على صدره! فما كان منها سوى البكاء بمرارة, وتابعَ الحارسُ كلامَه مُداعباً أذنَها الصَّغيرة:
لِمَ أنتِ هنا والجميع يتمتَّعون على الشاطئ,
لا تَدَعي الحزن يأخذُ منك زهوة الشَّباب يا فتاة،
ولا تعبسي أبداً...

تغزوها كلماتُه، ويتغلغلُ صوتُه الأجشُّ أعماقها:
هذه القرية لا تستقبلُ التعساء,
إيَّاكِ ثمَّ إيَّاكِ, إنِّي أحذِّرُكِ,
الطَّريقُ إلى التَّعاسة قريب,
لكنَّ طريقَ السَّعادة أوطد وأمتن,
واجبي كحارسٍ توفيرُ وقت البحث
وتدريبُ التَّائهين وإرشادهم إلى طريق السَّعادة.

إزدادت دهشتُها وعلق لسانُها، وتابعَ قائلاً:
هناك شروط للانضمام,
ومبادىء يجبُ التَّقيُّدُ بها...

إختفى الحارس، وابتعدَ المتجوِّلون عن المدينة, توقَّفَ قرعُ الطُّبول, عبرتِ الذَّاكرةُ أماكنَ وأزمنةً كثيرة، وبسرعةٍ استقرَّت حيث زمانُهما... و(ساد) يستمرُّ في الكلام:
ستُطفأ، بعد قليل،
الأضواء، وستبقى عيونُ أصدقائي
مشتعلة في سماوات المنافي.
بعد قليل، سيتوحَّدُ العقربان،

وأمَّا أنا فسأطلِّقُ دورانَ الأرض.

لم يلحظا ما يجري حولهما, تنفخُ الرِّيحُ أنفاسَها فتُعرِّي الشَّجرة المُعمِّرة من أوراقها, تتوِّج السَّماء بالسّحاب المتمرِّد الذي ملأ الكون, والأرضُ الرَّاضخةُ تهتزُّ تحت قدمَيهما. يريا نفسَيهما عاريَين أمام القدر, على جناح جبل شاهق يستديرُ فجأةً فيغوصُ النَّهارُ داخل مياهٍ لا يدريان كيف وصلت ومن أين.

تزاحمتِ الكواكب، ونزل شهابُ نورٍ من السَّماء. تدحرجتِ الصُّخورُ وانقسمت على نفسها, ولم يبقَ سوى حجرٍ واحدٍ وحيدٍ نُقشَ عليه اسمُ الحبيبين...

11

تُماطلُه بصمتها, ساكنان, هادئان, حيَّان! بعض الكائنات تموت ليلاً, أو تغادر, وربَّما تغفو, أو تنعزلُ... أو تعتكفُ قاصدة, تبتعدُ لترتاحَ وتستعدَّ لمَلحمة جديدة بطلوع نهار جديد.

كائنان اثنان لا ينامان, يحملان حزناً ثقيلاً في صدرَيهما, ويتمتَّعان بعالم جميل دافئ أيضاً, لأنَّهما مسكونان بالعشق والجمال! ومَن يسكنُهما لا يموتُ أبداً...

أصرَّت (سادينا) على الخروج من الوجود, فحبسَت نفسها في محارة، ودخلتِ الأعماق, غفت واسترخت, رقدت عصوراً طويلةً في الجليد, تجمَّدت أوصالُها, لكن بقي قلبُها ينبضُ في عتمةٍ بلا أصداء.
وقرَّر (ساد) الإبحارَ في رحلة البحث, ربَّما وُلدَ في فصلٍ غير الفصول الأربعة, احتضنَ داخل عروقه سلاماً وراياتٍ بيضاء, تؤرقُه همساتُ الطُّفولة, وتعذِّبُه سنواتُ الشَّباب, يبحثُ عن الأفضل, يحرسُ الكونَ بهدوئه, يقلقُ فيبقى مستيقظاً على مَرِّ العصور، وكأنَّه متَّهمٌ مطلوبٌ على لائحة التَّاريخ, يغادرُ من قارَّةٍ إلى قارَّة , يُراقبُ الأفق متحمِّساً, يركبُ قمَّة الجبال متحدِّياً, وينهَمُ من الحكمة من دون نهاية.

أصبحت (سادينا) باعثة حياته، وجاشَ هو بحبٍّ عنيفٍ كامِن. فلسفةُ الحياة تعزِّزُ الحبَّ وأهمِّيَّته في ترويض الفكر والعقل. ودليلُ ما أصابَه إصرارُه على عشقها والصُّمود أمام وَهن الكهولة والشَّيخوخة... فلا مناصَ منهما! تاركاً حكمة خالدةً على رمل البحر، وعكّازُه الثَّمينُ يساعدُه في تدوين حكمته الأخيرة... ويساعدُه على اجتياز المصاعب وبلوغ النِّهاية... من حينها ويغتسلُ الاثنان برحيق الذّكرى وتعثُّر الطَّريق.

وتطلقُ (سادينا) حزنَ الكلام:
فجأةً،
أستنفدُ جفني بذهوله الكبير،
وأنا احتضنُ قدَّاسَ الكائنات في نومي البعيد
ظلَّ منتصباً بكلِّهِ ويصرخُ بصمته:
أين الباب؟
وأنا، مثل أيِّ عشتار،
كنتُ أنتظرُه قبل أن تنهدَّمَ السَّموات.
هذه عيناه، سقطت في كأس ضوئي.
كم سعيدة أنا الآن،
أثملُ بخمرة وصاله عندما أدركتُ أنَّ وجهي يلتقي بوجه حبيبي،
وأقبلتُ في حضنه مشوار الضّياع.

وكان التَّناصُ العالي وإرضاءُ الذَّات. يشعرُ (ساد) بالانتصار الحقيقيِّ على الرَّغم من أنَّه يفتقدُ رؤية الحقيقة كاملة, إلاَّ أنَّه، وَحدَه، يستطيعُ تمييزَ الجمال والرُّؤيا, إنَّه التلاقحُ في الذَّاكرة, العقل والجسد, إنَّه الضَّجيجُ الدَّاخليُّ والصُّراخُ النَّابعُ من الأعماق. ربَّما كان الصُّراخُ تجديداً! بل إنَّه تنقية المعالم الرُّوحيَّة والجسديَّة, هو المنبعُ الحقيقيُّ لاكتشاف طريق الحرِّيَّة, هو العَدو الصَّحيح نحو الوجود! إنَّه علامة حيَّة على تكملة مشوار الحياة.

تتغلغلُ العصور في عقل (ساد) المتيقّظ، فيخشى على نفسه من حبيبة أبديَّة تعوِّده على الانتظار. إنَّه الصَّانعُ صورتَها, هيكلَها، شكلها, دمغَها في ذاكرته، وكلَّما أحسَّ بها ارتعشَ لوجودها ودقَّاً ذاكرتَه بها.
الشَّيخوخةُ قتلت داخلَه آلاف الذّكريات، وظلَّ يبتسمُ للقادم المجهول, يعرضُ عينَيه للأفق البعيد, تبقى معلّقة حتَّى يغافلَه النُّعاس, فينام حتَّى يوقظَه الفجرُ مجدِّداً:
أيقظَه الذّبول بطبله البليد
بعد ليل يترنَّح على عويل الذّئاب.

ماذا يدرك الآن وهو ينام على فراش الأميرات
المعطَّر برائحة الانقلابات،
والغريبُ كان، بلا سابق إنذار،
يعرفُ معنى البيانات،
ويخبِّئُ عينَيه قممَ السَّموات.
هذا المعمِّر المدهون بالشّعر وحكمة السَّموات
أيقظه رذاذُ الوداعات،
وداهمته مرَّةً أعاصيرُ الانفجارات.
بأيِّ مسلَّة من كذبة الآن يدافعُ عمَّا تبقَّى من هواه،
وهو المَصنوعُ من عصير الكون،
وكلُّ شعرةٍ في رأسه إله.
مَن أتى به اللَّيلة كي يوقظه في محطَّة الأغبياء،
يودِّع العابر، والعاثر،
تموتُ في روحه الكلمات،
وحين يلوِّحُ لزهرةٍ أخيرة،
تسقطُ من أصابعه المحطَّات،
فيصرخ قائلاً: ماتت حقولي،
وسقطت من عيني المجرَّات.

تمنَّى في قرارة نفسه أن يحوِّل الذِّكرى حياةً, وأن يمنح (سادينا) حياةً أخرى في مكان آخر لا موتَ فيه! لو يذهب بها إلى محفل الفرح الدَّائم! إلى الضَّحكات! إلى التَّشرُّد والخروج من الأعماق! لو يخلو بها! لو يدعوها إلى وليمة التسيُّب! لو يحتضنها! لو يكسر النَّوافذ ويلقي القبض على المارد المنتصب أمامه! تبدّل العصور, لو يخرجها إلى زمن النُّور...
لكنَّها ستجدُه عجوزاً, مُسنّاً, خرفاً... ظلَّ يبكي، واحتاج إلى شراب يُنسيه ما آلت له السِّنين... شرب وثمل... إرتجف جفناه أمام فجر جديد... أغمض عينَيه وعاد إلى المناداة:
هو الأعمى الوحيد، حين بكى وقال:
من هنا بدأ بأوَّل التَّلويحات،
ومن هنا لم يُترك عنه ما يُقال
سوى ذاك العجوز السَّاكن مقبرةَ الحانات.
كان يغنِّي أغنيَته الوحيدة،
بسنٍّ وحيدةٍ في فمه.
حين يحلُّ المساء،
لا يعرفُ لحنَها أبداً إلاَّ الغرباء.

لِمَ يبكيها هذا النَّهار؟ ولِمَ تقتنصُه رحلة الحيرة؟ تدركه رحلة جديدة نحو البحث عن المصير! لن يتردَّد، ولن يرميَ مأربَه للعظات، فأحكام الطَّبيعة تكبِّله وترميه مجدَّداً إلى الظَّمأ... فما تحمله أفكارُه لا يشبه الماء. لن يقضيَ ما تبقَّى من العمر على هامش الطُّرقات...

غزَته ذكرَى عابسة أوصلته إلى حيث أحدُ أصدقائه الذي أصرَّ الموت على الطُّرقات, اختارَ طريقاً أبديّاً يروِّضه محيطاً عملاقاً بأمواجه, أرادَ استردادَ حقّه في الحياة، وتعويضَ نفسه عن خساراته المتكرِّرة. لم يرضَخْ للمتغيِّرات الاجتماعيَّة، فاختار مجدَّداً الطَّريقَ الصَّعب, رفض التكيُّف والتَّقيُّد لنُظم رَتيبة, واستمرَّ البحث في داخل الذَّات، لتعويض نفسه عن الذِّكريات والأصدقاء... عن الأزقَّة وإطلاق صيحات الاحتجاج... عن البصق على الحكَّام واحتقار النُّظم السِّياسيَّة... بحثَ عن السَّلام داخل كأسٍ لا تنكسر, يرى العدالة من خلال عينٍ سكرى, ويعتاش على التَّأمُّل وأمل ثابت... تغيير النُّظم الدِّكتاتوريَّة وسحق المستبدِّين... اختاروا له مكاناً لم يجدْ فيه سوى الموتِ البطيء... تحيطُ به المحيطات، هو الهائجُ كثور... لم يكلِّفْ نفسه مجابهة عظمة الكون, أو محاربة الرِّيح, فهو الوديعُ السَّاكنُ في قعر الصَّرخات, فكان كالبحر, مدمِّراً كلَّ الأشياء بعواصفه، وبهدوئه أيضاً.
تجلَّت روحُه بعمق السَّنوات الطَّويلة التي عاشها باحثاً, حتَّى لو أصبحت مدينتُه منزوعة الجمال والكيان، لن يستبدلها بمدينة المحيطات! فأصرَّ على تحطيم القدر بكأسٍ لا تفرغ, لم تشبعْه رغبةُ الانتقام...

يحملُ أعباء قارَّة على كتفه وجسده المترنِّح مسروراً بها, يتخطَّى المسافات، ويحافظ على مساحاتٍ من الأزمنة والعهود تتأخَّرُ عليه والوعود, يجد الأحلام داخل كأس صمِّمت خصِّيصاً من نيران العبوديَّة والحرِّيَّة في آنٍ معاً! يشرب منها حتَّى الثماله, كما في كلِّ مرَّة, يبحر في مائها الممزوج، ولا يجد إشباعَ الذَّات سوى في طريقة واحدة يختارها لنفسه , الانتحار مدمِّراً جميع الأشياء... تمرُّده دعاه للموت المقصود بعد أن يئِسَ وشعر بالعدم, مات ويداه ترتجفان أمام كأس ملأى لم يستطِعْ ارتشافَها...

كان حمل (جان) ثقيلاً، وأحلامه الشَّخصيَّة ضئيلة جدّاً, لا يريد أيَّ شيءٍ لنفسه، بل قرَّر حمل الصَّخرة في بلاد، وضاعت منه في المَنافي, كما ضاعتِ الخطوطُ من يده، وراح يكتبُ بدمعه على الرَّصيف مُعلناً حبَّه على ترابٍ اعتقد أنَّه كحلُ عينَيه, لم

يستطعِ التُّرابُ احتضانَ وصيَّته الأخيرة، فماتتِ الكلماتُ في تراب الغربة، ومات وحيداً والجميع يحبُّونه, مات زعيم الأشقياء واستمرَّتِ العصورُ في دورانها تسحقُ القديمَ وتأتي دائماً بالجديد.

12

إستمرَّ (ساد) في العَدو, ركض كثيراً حتَّى وصل سادينا المدينة, أحسَّ أنَّه لم يبدأ بالرَّكض, فقرَّر أن يبدأ من جديد, من أولى الخطوات، وكأنَّ كلَّ ما كان في السَّابق لم يكُن أبداً, يتابعُ المسيرةَ باحثاً عن الكينونة الحقيقيَّة...
ولم تمُتِ الكلمةُ من فِيهِ:

هو اللَّونُ الأخير- لِلوحةٍ تنتظرُني
رتابةُ المرآة صارت بعضَ أسئلتي
فإذا لا بدَّ من حمل متاعي
إلى جهنَّم أخرى
وأستفيقُ بالقرب من موقد
سمَّيته اسمَكِ، يا أنتِ
فرَّتِ الصَّلاةُ من يدي،
وليس عندي ملعبٌ آخر
أمارسُ فيه هرولة الكلام
سأبصقُ بإصبعي
عشرةَ أصفارٍ على يمين الذَّاكرة
وخمسةَ أصفارٍ على يسار الظَّلام
لماذا يَمضي وحدَه،
يفتِّشُ في ثنايا العمر
عن غابةٍ ما عادت في وزرة اللُّصوص المؤجَّل من الخيط
هذا النَّازل من سقف تاريخ مكسور
صارَ تقويمي اليومَ
أتأرجحُ في لعبة الزَّمن،
وأكتبُ ضحكي على رصيفٍ
ما عادَ يحملُ اسمَكِ
أنا الجبَّارُ في لملمة ما تبقَّى من دمي
على كلِّ الكائنات
وأوقد ما تبقَّى من بعضي بحجَّة السُّؤال
أنا ابنُ رقعةٍ صغيرةٍ
اغتصبَها ملوكُ الحكايات
وأنا المُعدُّ وَحدي في وقف الزَّوايا
أحرِّرُ عنكبوتَ الأسماء
لأنَّ الشَّراكة بيني وبين تلك الأسماء التي ضاعت
كلَّفت قناعي البحثَ عنها في آخر المتاهات
كان الله صنماً عندي،
له سباته ولي سباتي
وكلُّ ما أخشاه أن يسقط رأسي على قدمي
ويحتفلَ الغرباءُ بميلاد هدمي

مشى تاركاً خلفه مقطعاً من الذِّكريات المؤلمة, حتَّى وصل طريقاً ضيِّقاً ومنطقة معزولـةً مُخيفـة. لم يستطِعْ تمييزَ المكان، ولم يتذكَّرْه، ولم يستطِعِ التَّوصُّلَ إلى منفذٍ يمكنُه الخروجُ منه. إحتار في أمر ذلك المكان الغريب, شعر بالتَّعب وتحايل على نفسه طالباً النَّوم على أن يستمرَّ في العَدو باكراً.
أحسَّ وكأنَّه يحملُ عالماً جديداً على كتفَيه! أو ربَّما يركبُ أسطورةَ القدماء! لا يدري في أيِّ عالم يسير، لكنَّه يُصرُّ على ركوب الطَّريق مجدَّداً, سيسيرُ في موكب الغرماء, حتماً سيصلُ إلى مدِّ الذِّكريات، وسينتهي موكبُه حيث البحر... موطن الخبايا والأساطير...
وفي اليوم التَّالي، حضَّر نفسَه لملاقاتها, توجَّسَ جميع الأصوات، ووقف مشدوهاً أمام السَّاعات... لم تحضر سادينا...

داهمَه الغروب، وقطع صوته الصَّمت يناديها:

سادينا، الآنَ كلٌّ شيءٍ هادئ في جوف الكذبة،
كيف أتدبَّرُ بقاربه الذي لا أعرفه،
وهو الذي كلّ ما في أعلاي،
وأسقطته من يدي القمَّة
سادينا، سألبسُ الشَّوارعَ القديمة،
وأرافقُ صديقتي الهزيمة
وأتجوَّلُ حتَّى آخر اللَّيل،
وأوزِّعُ شعري على الصَّعاليك،
لقمةً بعد لقمة
قبل أن يطلقَ اللَّيلُ نارَ زفيره
على حروف البحر
وتحتفلَ الزَّواحفُ بعرسها
وأبقى في كهفٍ لم أفهمه
سأخلعُ، يا سادينا، وجهي، الليلة، الآن
أعذريني
وأفتحُ بابَ القلب على القوارب،
على كلِّ البارجات
على بواخر الله وخَلْقه،
على ذاكرتي قبل أن تبتلعَها الأمواج
ولا أراكِ، لا في قيامتي،
ولا في أفقٍ لا أعرفُ اسمَه
لو تدرين ماذا فعل بعدَكِ
هذا جرحي، وهذا بعضُ دمي
موجوعٌ أنا، لو تدرين صوتي
مبحوحٌ، شاحبٌ وجهي
لا تبتعدي، لا تبتعدي
فإنَّكِ، لقلبي، كلُّ الشفاء

وعلى أرضٍ حيَّةٍ مشى, والأزمنةُ قبضُ يدَيه, ذلك المغامرُ يبكي، والبكاء يأتي من العَدَم, والعَدَم ليس فيهِ ولا فيها, الحارس العظيم خلقَ منهما دولة، وصنع من روحَيهما جنَّة, تحومان بلا هوادة. تختفي روح (سادينا) من دون سابق إنذار, لكن، هذه المرَّة، سمعَها من بعيدٍ تُناديه:
كم عميق هذا البحر، يا سيِّدي،
لكنَّه ليس أعمق من حبِّي لكَ
سأحملُ روحي شراعاً،
وأصلُ بَرَّ أمانكَ
طريقي إليكَ طويل،
وغنائي، بالحبّ،
يُقصِّرُ المسافات
كم عميق هذا البحر، سيِّدي،
لكنَّه ليس أعمقَ من حبِّي لكَ
مركبي محمَّلاً بالورد،
مركبي محمَّلاً بالكلمات
صدِّقني، لا خوفَ على وصولي
على الرَّغم من أنِّي في بحر الظُّلمات
وإذا ما وصلتُكَ،
تصلُكَ قصائدي،
هي لحياتكَ حياة
كم عميق هذا البحر، سيِّدي،
ليس أعمقَ من حبِّي لكَ

توقَّفَ عن المسير، وأصغى مشدوهاً لصوتها، وهي تواصل:
على جناح الخوف –
سأصل، وأضعُ في حضنكَ قلائدَ شعري

 © Tous droits réservés

حيث تنتهي كلُّ محطّاتي
كم عميق هو قلبي،
لو تدري، نصفُه قد يصل
ونصفٌ يحتفظُ به البحرُ إلى حين
هذا البحر، لو يحكي كَم مثلي في قيعانه،
هذا البحر، لو يدوِّن آهات الرَّاحلين
أو أقول لكَ، سأصمتُ طوالَ رحلتي،
رُبَّ بعض ساريتي تعلنُ الخبرَ اليقين

ساد: *يا أنتِ، تعالي إليَّ واقتربي منِّي،*
أشتهيكِ رغيفاً صباحيّاً قبل موعد العَدو،
ولِمَ أعدو طالما كنتِ قيدَ يدي.
ماذا أفعلُ لقلبٍ عاطلٍ عن الحبّ،
ولا يتبقّى إلاَّ في لقياكِ.

سادينا: *سآتي، لكن،*
لا تنسى أن تتركَ لي ساعات الغروب.

ساد: *يا لحناً بشريّاً،*
سأوصلكِ إلى حيث تريدين،
على رفرفة عصفور.

سادينا: *أتركْ لي بعضَ الظّلِّ على حافَّة القدر بعضَ الأمل،*
بعضَ الدَّمع لأتعقّبَه عند الرُّجوع.

ساد: *أيُّ قلبٍ هذا،*
سأودعه بخانات لا يفتحُها
إلاَّ مَن يُريد قراءةَ وجهكِ.

سادينا: *إيَّاكَ أن ترمقكَ نجمةٌ عندَ الرُّجوع.*

ساد: *سأمضي أحملُ فوق كفّي بعضَ ما أدري،*
لكنَّني خائفٌ أمام ما أحملُه
بالقرب من واجهات الفراق
الذي أخذ منِّي كلَّ ما تبقّى من تساؤلاتي
في وَضح النَّهار.

13

وصل منطقةً نائيةً اعتقدَها مكانَ تقابل العصور, قابلَ الشَّابَّ كما في كلِّ مرَّة , وظلَّ الأخيرُ صامتاً كالعادة, يراقب, يتأمَّل, يتحدَّى!

يقف (ساد) على قمَّة الجبل متحدِّياً. شجاعةُ التَّأمُّل تُنسيه أحزانَه والوقت... لا يدري كم من الوقت مكثَ هناك...
سحابةٌ بيضاءُ سريعةٌ حالت بينه وبين ذلك الشَّابِّ الصَّامت دائماً, لم يتمكَّنْ من متابعته, لكنَّه رآه في موقف المُرتَبِك الحائر. إبتعد الشَّابُّ واقترب, تردَّد كثيراً في المضي، لكنَّه قرَّر أخيراً المكوثَ حيث هو, فرجع إلى مكانه مقرِّراً البقاء, ظهر عبر الأفق بمظهر مختلف, يحملُ رايةً بيضاءَ تارةً، وطوراً تتبدَّلُ الرَّايةُ فتبدو حمراء...
غضب (ساد) لمرأى عينَيه, صاح بأعلى صوته، نهَرَ الشَّابَّ المتردِّد, فغاب الصَّوت في الأفق... صاح مرَّةً أخرى, ناداه بصوته المُتعَب... فلم يسمعْه الشَّابّ. إغتاظ منه وطرده من المكان, لكنَّه كان قد احتلَّ المكانَ براياتٍ بيضاءَ وحمراءَ عديدةٍ, ورايةٍ سوداءَ وحيدة...

أرجعَته الرَّاياتُ إلى عالمٍ استثمرَ جميع قواه العقليَّة والجسديَّة, عندما طالب (ساد) بالسَّلام, بالحرِّيَّة, بالحياة؛ وها هو الشَّابُّ يُرفرفُ عالمه الجديد براية سوداء... علامة الموت والنِّهاية!

إستاء من الرَّايات المتكرِّرة عبر الهواء، وخشي على أفقه الذي أصبحَ بلا راية, فراح (ساد) يُنشد:

في ساحة الملامح تتجوَّلُ الأقنعة،
وقلبي الطِّفلُ غادرَته لقَّة التَّعرُّف
أقصى يساره بناياتٌ عُدَّت للتَّذكُّر،
وأقصى يمينه كفٌّ يحملُ منديلَ النّسيان
الخطى ما عادت تعرفُ مدخلَ الطَّريق
إلى غابة الصِّياح والشَّارات
كسرها الزَّمنُ المُنافق،
هذا الغريقُ بلا مياهٍ تغمرُه

لكنَّ اليباسَ غلَّفَه بفيضان البكاء،
عيناهُ تحتاجان بوصلة اسمُها الرّحلة
ساديناً، هذا القطعُ ليس مخاضي،
إنَّما هو مطرُ الأبرياء،
عمقُه وضعني بين دفَّتين
قارَّةٌ تمسحُ سؤالي فوق دفاتر اللّحظة،
أو أمتطي هذا الأفقَ الممنوعَ عنِّي، أم ماذا؟
هل أكفرُ باسمكِ واسمي
حتَّى ينجلي هذا الصَّباحُ الغارقُ في قتله
أيّ تابوتٍ هذا يرضي عشائرَ الدَّم،
حتَّى نلتقي في نهاية الخيط بأفقٍ يصفِّقُ له الجَمع،
وتكتملَ حفلة الرِّثاء

إتَّكأ على عكَّازه بيدَين ارتجفتا برداً ووَهناً. فكَّرَ كثيراً ببناء جسرٍ مَتينٍ بينه وبينها, فهو ابنُ الأرض، وهي ابنةُ البحر، فأيُّ جسرٍ يُمكنُه الرَّبطُ بينهما؟ وهل يستطيعُ مدَّ خيطٍ يربطُ الحياةَ بالغَيبيَّة! الواقعَ بالأحلام! السَّعادةَ أمام اللاَّشيء؟ فما كان منه سوى التَّكلُّم بلغة الخيط:

مُرَّ فيَّ، أنا ابنُ ثقب الكينونة العاطلة،
رَتِّقْ خريطة وضوحي
صوبَ انشقاق الصَّخب
مُدَّ زغبَك الجميل في الجذع،
أسِّسْ هذا الانقطاع قبل موت الضَّوء
لا مَرَدَّ لي في ضياع الظِّلّ،
لا وضوحَ عندي في حديث النَّسج
قبل أن تتركَ في هذا العمق علامة استفهام
في ممرِّ النَّعيق الذي تركته فيَّ جثامينُ الغربان
قُلْ ما شئتَ في عشائي المؤجَّل
قبل سقوط الجدران، السُّمّ!
ضربةُ فرشاةٍ في لوحة المغادرة،
أسقِطِ ألوانها، إن شئت، من مخدع الصُّورة
ربَّما نُصبحُ اثنان في خندق الهَوَس
ونفتحُ بابَ الكؤوس،
علَّنا نثملُ على إيقاع النِّسيان
في حفل الهاوية المَدهونة بأسمائنا الأولى
فوق طاولة الهذيان
هذا ليس دمعَكِ، ليس دمعي،
صوتٌ آخرُ يتجوَّلُ في جدران الرُّوح
هو القادمُ على ما أظنُّ،
يخطُّ بفحم الكون على ضباب الوهم
ما تبقَّى من هذا الكيان

يقفُ متأمِّلاً, عاجزاً أمام الوصول، فمُقَيَّدٌ هو بثلاثة أخطاء تكبِّله من دون رحمة ولا يستطيع التَّخلُّصَ منها! يدرك أنَّه سيكون سعيداً من دون هذه الأخطاء: عشقُه الوطنَ, الأمَّ، الحبيبة...

يُحاكي نفسَه متألِّماً مؤنِّباً:
أتذكرين بحرَ الخطيئة؟
يومَ كنَّا نجوبُ في عبابها؟
الخطيئة الموشومة عندما اخترت عشقَ هؤلاء...
لذلك اخترتِ يا نفسي الضَّائعة طريقَ الرَّمل,
ويا روحي الحائمة طريقَ الهواء.

مطرٌ خفيفٌ بلَّلَ وجهَه, مسحَه بكفِّهِ, ومن بين القطرات تراءت أمامه سفنُ الصَّيد تقتربُ نحو الشاطئ بحِملها الثَّقيل. وبحماسةٍ اخترقتِ الأمواجَ العالية تمسك بذيول اليابسة المقتربة.
جميلة هي قهقهةُ الصَّيَّادين,
فإني أسمعُها من بعيد,
حين حصلوا في شباكهم على قناني الذَّاكرة
وهم لا يُدركون كلَّ هذا الجلال!

ومن بين الإيقاعات المتنوِّعة, أصواتِ المَراسي, هديرِ البحر، الرِّياحِ المشتدَّة، يظهرُ له الشَّابُ مرَّةً أخرى يقظاً، قويّاً, متأهِّباً. يتجنَّدُ بسلاحٍ ناريٍّ, يرتدي ثوبَ المُحاربين, صرخ في وجهه، والأخيرُ لم يحرِّكْ ساكناً, كما في كلِّ مرَّة:
أيّ ثوبٍ ترتدي؟
أثوبَ العبوديَّة المُترقّي؟
ألا تتذكَّرني؟
فقد سبقتُكَ يوماً إلى هذه الرّحى؛
والآن، وبعد كلِّ هذه العصور،
تراني أغادرُ مع هذا الغطاء البسيط
المصنوع من ريش الدَّواجن!
وعكّاز أخرس لا أدري هل سينطقُ ذاتَ يوم!
أبدو الآن كشبح تافه يحملُ راية بلا لغة,
صمَّاءَ لا يراها سوى الحمقى من أمثالي,
أناديكَ يا أيُّها الشَّابّ,
أناديكَ, أناديكَ, أناديكَ...
حين يختلجُ الصَّوتُ بالصَّمت،
ويتقوَّسُ الكلام
أنحني لجَلال الورق الذي يُكَمِّمُ فمي بثلج الرُّعب
وأنزل إلى سؤال البرد،
أخرجُ من غابة الكذبة
أكتبُ بعري صرخات بحرٍ فوق كفّي نام
كيف أداعبُ استِلابي بموسيقى براءة الاحتجاج
هذه عباءةُ التَّجلّي،
يلعبُ ضميرُ الشَّيء خلفَها لغة الاختباء
ما ذنبُ ظهري يحملُ ضحكة تراتيل الأغبياء
وأنا المُعَدُّ أبداً لسيفٍ لا أنتمي إليه
كي يمضي بلا عزاء يخذله
لم يملك من كنز هذياناته إلاَّ عصاه؛
هي الدَّليلُ والاتِّكاءُ عند سواحلَ تَشتهيه
ويمضي برفقة بقاياه،
ويصرخ: أنا الإلهُ المعبَّدُ ببَياض الضَّمير
هي رحلتي إلى ممالك الرَّايات،
وإن خذلتني منّي ما تبقَّى جنديٌّ بدَم خسائره
يرفعُ راية الظَّلام

خسرَ الكثيرَ من الخطوات العجولة وهو يحاول اللحاق بالشَّابِّ المُغادر, أهدرَ طاقاتٍ لا حدودَ لها في الصّراخ منادياً, لم يستطِع الصَّوتُ اختراقَ الجوِّ القاتم, توقَّفَ عن الصّراخ والرَّكض، وهو يلهثُ ككلبٍ مُسِنٍّ أمام المصير, فقال ساخراً:
سادينا،

هذه الجنَّات أُعدَّت للنَّائمين في علب السَّردين

ويغيبُ في حلم طويل يبتلعُ كلَّ الصّراخ, يرى نفسَه مُستلقياً في بطن السَّماء يُطلقُ ألحاناً تتراقصُ على أنغامها طيورٌ عجيبة, تتهافتُ على جيوبه، تبحثُ عن فتاتات نسيها, تحومُ حوله بمناقيرها الفارغة, تطلبُ المزيد من الكسرات, هاجمَته كجيشٍ مهزوم, وفي لحظة يأسها حملته ووضعَته على خيطٍ مُدَّ كجسرٍ أوصله عمقَ البحر.
يصلُ الأعماقَ مغتبطاً, إنَّه يدركُ العالم المائي بعمقه الإنسانيّ, يحملُ أمانةً يجبُ أن يوصلها؛ إنَّه جنديٌّ وموجودٌ في خندق الحقيقة, ذاهبٌ هو إلى العالم المائيِّ الذي يحملُ الكثير من الأسرار... الأسرارِ العميقة...
التَّاريخ سيدوِّنُ قيمةَ الإنسان الذي تاهَ في الأعماق وانتهى وجودُه في سبيل البحث عن الحبِّ الصَّادق.

إرتكزَ جمُّ تفكيره على كيفيَّة اللّقاء, سيجتمعان في رقصةٍ توحِّدُهما وتطفئ نارَ الأشواق المتأجِّجة داخلهما, سيذكّرها بأيَّام العشق المتمرِّد, سيغنّي لها:
يومَ كنَّا مَسكونَين بالعشق، انتبهَ الله،
وحين توحَّدنا في الشَّفتَين، ابتسمَ كثيراً
هذا البعيد،
مَن يدري لو رقصنا رقصتَنا الأخيرة
سوف يضحكُ على خطواتنا بعضُ السَّماوات
هذا بعضُ فالسِنا في دورته الأخيرة
أيُّ كفٍّ ستمتدُّ لتحتضنَ الرَّاقصَ الأخيرَ
في ساحة الاعتبارات
تعالي نقصُّ هذا الشَّريط الذي أوقفَنا طويلاً،
وندخلُ جهنَّم الحرِّيَّات

إستيقظ, توقَّفَ الحلم، وما زال ينهمُ من عسل شفتَي الحبيبة, صعبٌ عليه فراقُها, احتارَ في الأمر, نفسُه توَّاقة لحبٍّ لا يتحقَّقُ الوصال فيه, تموتُ أمام رغبات قلب يُذيبه الانتظار ولا تستطيعُ السِّنينُ مَحوَه.

صرخ صراخاً عجيباً:
هي التي أرادَتني حيّاً فأماتَتني بحبِّها...
هي سرُّ الوفاء تركنُ ظلَّ الأعذار،
فتتوارى داخل صخرة عملاقة...
سادينا, لا أقوى على حملها أو زحزحتها أو الاختباء في حضنها،
ولا أقوى، حتَّى، على جعلها ملجأً لي...
لِمَ تختفين كلَّما اقتربتُ منكِ؟
لِمَ لا تخلّصينني من عبوديَّتِكِ,
لِمَ لا تدعيني أحسُّ بدفء جسدكِ؟

إشتهى سيجارة, بحث عنها في جيوبه الفارغة, ربَّما تدخينُها يُعينُه على التَّحمُّل. التَّفكيرُ فيها نوعٌ من التَّمرُّد والإصرار, له رغبة فيها ويريد إشباعَ ذاته. إنَّه ضعيف أمام هذا الشيء الأبيض الرَّفيع المَلفوف, ربَّما تدخينُها يوطِّدُ ارتباطَه بالحياة, يريدُ الاستمتاعَ بها كاستمتاعه بالحاضر الذي يعيشُ من خلال الحلم, ستُنَقِّيه من الماضي ومن الذِّكريات, ستُنسيه...

14

حرارةُ الجوِّ تزيدُ من حرارة عقله وتزيدُه عناداً, صامتٌ هو، ونظراتُه حيَّة, يتماهى بأفكار غير محدَّدة, طفولة وحرمان, فقر وظمأ, أمنيات وقمع, أولى المعارك التي اشترك فيها مُكرَهاً, عدد مغامراته العاطفيَّة, تجربته السَّاحرة الأولى بإشباع رغبته الجنسيَّة التي أودت ببراءة الطُّفولة, أوَّل كأس, وأوَّل سيجارة جرّبها, نزوات تعدَّدَت وإرضاء شهوة مكرَّرة.
وكانت بداية قصَّة حبٍّ تختلفُ عن كلِّ السَّابقات, حبُّه لسادينا, حبُّه للعشق ذاته وليس للجسد, حبُّه الذي تحوَّل قوَّةً للاستمرار في دورة الحياة, بعيداً عن الموت, أبديّ وخالد, لكنَّه ما زال خائفاً على اندثاره, هواجسُ القلق مستمرَّة, لا يريدُ له الانتهاء, يعرف أنَّ لكلِّ شيءٍ نهاية, يُنكرُ تلك المعرفة! سيطلقُ بيان احتجاج على نهايةٍ لا تروقُ له, إن كانت, سيتظاهرُ وينتفضُ فيحقّ له الاعتراض:
سادينا، هو البيانُ الأخيرُ للورق الهارب
من فم التَّصريح بين يدَيكِ
يصلحُ لطفولةٍ لم أمارسْها منذ خمسين

ماذا أفعل بتاج الوصول، من دونك،
وفوق ظهري صخرُ التَّاريخ
أنا البيدقُ الأخيرُ في كفِّ الملك الهزيل
خُذيني من رقعة نهاياتي،
والعبي بوَهمي كما تشائين،
مُباحٌ هو حجمي لمربَّعات المغامرين

حلَّ مساءُ آخر، وبقي قرباناً للوَحدة , لم ينكسرْ صوتُه أمام العتمة، فسألها باحثاً:
هي بحر الظُّلمات، إلى أين،
أو لي بذاتٍ تنتظرُ ذاتاً
هو الطَّريقُ إلى الشَّمعة،
ولكن، ماذا أفعلُ بخسوف الأنات
يا إلهي، ترجَّل، من هذا الوقع،
ليس بيني وبينك سوى كفر المسافات
لا علامة لي بالصَّاعد،
ولا بالهابط، أنا محدَّد،
ولي حبُّ هذه الطُّرقات
إيَّاك أن تطرقَ أبوابَ الزَّمان
وتوقظني من وهمي،
إيَّاكَ أن تعيرَني إلى خطإ البدايات
يا بحرُ، أنتَ طفولتي، وكهولتي،
خُذْ أسئلتي، واعطني ما فات

يستذكرُ الماضي برحلته الطَّويلة عندما خرج من إحدى بوَّابات مدينته السَّبع, لم يدركْ حينها أنَّه سيشتاقُ إلى ضجيج سكَّانها, ولم يتوقَّعْ أنَّه سيبقى أسيرَها يحلمُ بالرُّجوع ودخولها من الباب عَينه الذي خرج منه. الآن بالذَّات تلوعُه الوَحدةُ القاتلة, يستحضرُها بكلِّ تفاصيلها الهامَّة والتَّافهة, يقلبُ صفحات الذَّاكرة وكأنَّه يقلِّبُ كتاباً مليئاً بالصُّور الحياتيَّة... صور مليئة بالأشواق, تلاحقُه حتَّى ممرَّات عقله.
يستقرُّ ذهنُه عند ساقي الحديقة العامَّة بثيابه السَّكنيَّة وملامحه الهادئة. والنَّادلُ في البار وعطفه على السَّكارى المُفلِسين. بائعُ الخبز بيدَيه الهزيلتَين, حامل اللُّقمة والممنوعُ عنها, ومتسوِّلُ الحيِّ الذي كان دائماً في انتظاره. معمِّرُ الشِّيشَة في مقهى الكسالى واستراقُّه السَّمعَ إلى أسرار أسيرَّة الزَّبائن اللَّيليَّة. بائعُ الصُّحف وجيوبُ جلبابه المنتفخة بالعملة الصَّغيرة. المأذونُ المُنهمكُ بمسائل الزَّواج، الخائرُ القوى أيَّام الخميس والجمعة، والمتذمِّرُ دائماً بسبب اكتظاظ جدول المواعيد. المُطَهِّرُ الحلاَّقُ ذو البطن المستديرة الذي لا يكفُّ عن الأكل، يحمل اللُّقمة في يد، والمقصَّ في الأخرى. جامعُ النُّفايات بأنفهِ الطَّويل المعوَج, يتحرَّى عن البقايا ورَزمها في كيس خاصٍّ له. والتَّحرِّي، بضخامة رأسه، وكاتبُ الشِّعارات الجريء... وَ... وَ... آخرون كثيرون غابوا في لحظات ضبابيَّة!
ولم ينسَ عُراةَ الصُّدور في المخابز، بخاصَّةٍ الخبَّازُ ذو الصَّدر الواسع الذي ألهبَ نساءَ الحيِّ بفتنته وأجَّجَ غرائزهنّ، تلك التي لا تُكبَتُ أبداً, يسارعن في كلِّ فجرٍ لشراء حاجتهنَّ من الخبز لتحضير الزَّواويد لأزواجهنّ, يلقين نظراتهنَّ الجذَّابة, وغالباً ما تكون النَّظرات خاطفة، وإلاَّ تحوَّلت قصصَ حبٍّ تتداولُها جميع النِّساء المقهورات, هكذا يضمنَّ لهنَّ حكاية شهريَّةً جديدةً يتلهَّينَ بها على الأرصفة التُّرابيَّة حتَّى موعد رجوع الأزواج , إنْ قصرَت مدَّتُها فبسبب استيلاء حكايةٍ جديدةٍ يأتي بها الرِّجالُ العاطلون من نزلاء مقهى الحيّ.

لا يدري لِمَ مرَّت (منوّر)، ابنةُ الحيِّ القبيحة، في ذاكرته الآن, وهي في الكوشة تنتظرُ بفارغ الصَّبر مَجيءَ عريسها ليأخذَها إلى بيته. أحلامها الورديَّة, وللمرَّة الثَّانية, تتحقَّق الآن, المتعة المؤجَّلة ... وأحلامُ والدها للتَّخلُّص من لقمتها. تنزلُ من الكوشة مفاجئةً الطُّبول بدهشتها, تنخرطُ بين المصفِّقات وأطباق الأرزّ المُلقاة أرضاً, تزيحُ أطفالَ الحيِّ بقدمَيها, ترجوهم إفساحَ الطَّريق لها, إنَّها العروس, بطلةُ اليوم! إستطاعَت، على الرَّغم من قبحها، أن تجدَ لها عريساً. لا يتوقَّفون عن المَضغ. يلتهمون عن أسبوعٍ كامل, حتَّى موعد عرسٍ آخر, يتذكَّرُها صارخةً مُحتَجَّة, تتوعَّدُ صائحةً بعدم إطعامهم مرَّةً أخرى حتَّى لو كان يوم عرسها القادم:
"دَعوني أمُرّ,
العريسُ قادم,
فقد نسيت استبدالَ سروالي الدَّاخلي!" ...

ضحك (ساد) في سرِّه لهذه المشاهد, ارتفعت الضّحكة, استولت عليه, غمرَت أنفاسَه الصَّاعدة, وسرعانَ ما نزلت مع شهيقٍ من البكاء المُرّ...

سقطت ذاكرتُه إلى مكانٍ آخرَ حيث جوادُه الهاربُ وتوبيخه له, حيث صهلَ مؤنِّباً:
"مسكينٌ يا مَن ورطَ نفسَه بحبِّ هذه الأنثى!

يا آدم, يا مخلوقاً بشريّاً,
يا مَن هَوَت عليه الأقدار،
وسجِّلت دموعه قصائدَ,
لم أرَكَ سابقاً بكلِّ هذا الضّعف,
يستبدُّ بك البحر,
تغوصُ مئات السِّنين في بحور البحث والانتظار,
تبحثُ عن حوتة عذراء,
منذ غادرتك وأنت فاقدٌ نصفَك الآخر,
هل ستحيا بقيَّة حياتك
وحيداً بالقرب من المحيطات الهائجة؟
أم ستلوذُ في أحد المرافئ
فيخشاكَ ساكنوه!
أين سيكون استقرارُك،
وفي أيِّ ماءٍ ستَحيا
وما زال ماء العشق يُغرقُك؟
هل ستبقى تستغيثُ الحرمانَ وتتسوَّلُ قُبلة؟
أعجبُ منكَ يا سيِّدي الضَّعيف،
واعذُرْ لي جرأتي.
إنَّك لا تشبهُ الحيتان،
وتملكُ قلبَ حمامة,
يا مَن خاوَيتَني أعواماً وأرضَيتَني ببعض الكلمات,
لن أكملَ معك إلى بحر الظُّلمات,
فأنا حصانٌ أصيلٌ إنْ مُتُّ فسيبقى لقبي،
من بعدي، وفائي..."

يجيبه (ساد) في حينه:
"لا تُغيرُ عليَّ بكبريائكَ،
فأنا أكبرُكَ!
ولا تَلُمني على حبٍّ مجنون!
لا ترمقني بعينَيك الشَّرهتَين,
لا تحطِّم خطواتي،
ولا تخرجني من بحر عزائمي!
لا تطوِّقني بجمالك،
فنفسي تحتفظُ بأهمَّ من الجمال..."

ضحك الجواد بأسنانه المشرَّشة الصَّفراء, ضحكته الباهتة وضعَت (ساد) في محفل التَّساؤلات التي أخذت من عمره الكثير.

يتوقَّفُ بصره عند دارٍ قديمةٍ تتوسَّطُ مزرعة مَواشٍ مُسوَّرَة بسياجٍ آيلٍ إلى السُّقوط. طائر قبيح طويل القامة يقفُ منتصباً كزنبقة شاحبة فاقدة الجمال, يحرسُ البيتَ بعينَيه المدوَّرتَين المتحرِّكتَين. وفي جانب بعيد تقفُ سيَّارةٌ ضخمة إطاراتُها, دُهنَت بألوان بوهيميَّة عديدة. قال (ساد) في سرِّه: *يا لغرابة ما أرى!*
أترجَّلُ بقسوة الطَّريق على قدميّ،
وذاك المجهول يترجَّلُ مدلَّلاً
حتَّى كرسيِّ سيَّارته الفخمة.

تتَّضح لافتةٌ مكتوبة بخطٍّ جميل على الباب الخشبيِّ للبيت كلَّما اقترَب:
"عازفٌ معتَكِفٌ التزمَ الصَّمت".

لزمَ مكانَه من دون حراك, تمنَّى الدُّخول، لكنَّه افتقدَ شجاعة اختراق مكان صاحبه يطلبُ فيه السَّكينة, تمالك نفسَه، لكنَّ الفضول يجتاحُه ويؤرقُ خطواتِه.
يحترمُ الرِّسالة الخطيَّة المَكتوبة, رسالة واضحة قصيرة بها حكمة ودرس في الاخلاص. من شِيَمه الإخلاصُ والالتزامُ برغبة الآخرين, لكنَّ الفضولَ أحياناً أقوى من الالتزام!
منحَ ذاتَه مزيداً من الصَّبر, انتظر حلولَ اللَّيل والمعتكف ما زال يعتكفُ في الدَّاخل! وها هو القمرُ يعلنُ بداية فجرٍ جديدٍ وما زال البابُ موصَداً لا تنبعث منه أيُّ معزوفة!

أراد العُدولَ عن قراره والمضيَّ في طريقه، لكنَّ قدماه حسمتا القرار. أطاح بالباب الخارجيِّ المنخفض للسُّور, ركَنَه جانباً ودخل, تدرَّج صاعداً بعض درجات خشبيَّة, وصل الباب ذو اللاَّفتة ووقف أمامه, قرأ اللاَّفتة مجدَّداً:
"عازفٌ معتكفٌ التزم الصَّمت" ،
ومجدَّداً: *"عازفٌ معتكفٌ..."* .

وكأنَّه لا يستوعبُ ما هو مكتوب! نقرَ البابَ بأصبعه نقرةً خفيفة, ونقرةً أخرى قلقة, وأخرى متسائلة. توالت النَّقرات, تتابعت بقوَّة، ومن ثَمَّ سمع صوتاً من الدَّاخل:
لا تطرقْ بابَ داري.

أجابَه (ساد): *كلانا بلا باب!*

عاودَه الصَّوت من الدَّاخل: *عُدْ إلى مَسكنك, مَسكني لا يتَّسعُ لاثنَين.*

أجابَه (ساد): *أنتَ تسكنُ في خراب! وأنا أسكنُ في خراب!*

لم يحضرْه أيُّ تعليقٍ أو ردٍّ حتَّى سمع الآخر يدعوه إلى الدُّخول.
جلس على أريكة قديمة يواجهُه عودٌ قديمٌ عُلِّق على الحائط. تحيطُ به النُّوتاتُ الموسيقيَّة. محتويات البيت تدلُّ على فقر حال الرَّجل الآخر. الجدران مليئةٌ بالصُّور البالية, يبدو أنَّها معلَّقةٌ هناك منذ زمنٍ بعيد, ثنيت بعض أطرافها, جميعها تعود لشخصٍ واحد, لصاحب البيت, يظهر فيها تارة بزيٍّ (جنكيز خان) وشاربَيه المتدلّيَين كحيَّتَين مالستَين، وكوراً بزيِّ الأولياء الصَّالحين وعماماتهم الوقورة, وصورة أخرى يبدو فيها كصعلوك متسوِّل على الطَّريق, وأخرى كعَبَدَة الشَّياطين, وصورة أخرى (كسوبر مان) المزيَّف, ويظهر في أخريات بعيدة عن الملامح البشريَّة أو الإنسانيَّة يوشمُ جسدَه بذيولٍ طويلةٍ وأفواهٍ مُدلاَّةٌ ألسنتُها.
ويظهر اليوم نصف عار, فاقد الوعي وعاري الفكرة. متنكّر, متوهّم, متمسّك بحياة بلا حياة, منتظراً ولادة لم تأتي ولن تأتي , فأفواه التافهين لا تحتوي سوى على التفاهات الرّخيصة...
نبض قلب (ساد) كارهاً المكان بساكِنيه, نبضاته السَّريعة لم تثنِهِ عن مقاومة ذلك اللّحوح الثّرثار, كان البيت جاقاً حارّاً حتَّى درجة الغليان, أغلقت النَّوافذ وحلَّ ظلامٌ دامس. افتعلَ الرَّجل الحكمة وأراد إيهامه بالنُّبوَّة, حدَّثه قائلاً:
لمَ تأخَّرتَ يا صديقي العزيز؟ فأنا بانتظارك.

ساد: *تنتظرُني أنا؟ لم يخبرْني أحدٌ أنَّ كائناً ما كان بانتظاري.*

الرَّجل: *نعم, لقد أرسلت لكَ رسالة.*

ساد: *بل إنَّك لمُتَوَهِّمٌ كبير, لم تصلني أيُّ رسالة, ومَن تكون كي ترسلَ لي رسالة, ومن أين لكَ فحوى يمكنه تغييرُ وجه التَّاريخ؟ إنَّك ضالٌّ مُضَلِّل, حسناً فعلتَ ولازمتَ قبراً تدعوه بيتاً!*

إغتاظ الرَّجل, مدَّ يدَه وسحبَ سيفاً معلَّقاً, أراد ضرب (ساد) حتَّى المَمات, استدارَ الأخيرُ ساخراً: *سيفُك صَدِئ, أعدْه إلى غمده ليستريح.*
يخرج (ساد) ويسبقه صوت الرَّجل:
بيتي أعدَّ للدُّخول والانضمام وأنت ترحل بلا أسباب.

يُسرع (ساد) بخطواته الواثقة, يسعى خلفه الطَّائر الغريب في الباب يولولُ بصوتٍ غريب, يخترقُ السُّورَ ويحاولُ اجتيازَ الطَّريق, لكنَّه يتوقَّفُ فجأةً تغمرُه دموعاً لا تراها سوى الطُّيور المتخفِّية على أشجار بعيدة.

وردةٌ حمراءُ باكية, وحيدة, تسكنُ حديقة البيت, تزيِّنُ بابَه الخشبيّ, تشكو بصمتٍ ما ألمَّ بها, تنتظرُ المغادرة, ولا يسعها سوى الاحتضار أمام بيتٍ يسكنُه شيطانٌ مزيَّفٌ يحتفظُ بغيتارة حبّ تمنَّى (ساد) لو اقتلعها من مكانها ووضعها في مكانها الصَّحيح.
هذا التَّلُّ من الحزن يمزِّقُ حواسَّه ويثقبُ مشاعرَه, في خندق الدَّمع لا أحد يستطيعُ رفعَ سبابته كي يؤجِّلَ الحزن أو يمهلَه, هذا الحزن الممتدُّ من جنوب المأساة إلى شمال الضَّحايا.

أعاد البابُ الخشبيُّ ذاكرتَه إلى الخلف, عندما كان طفلاً فاقدَ الطُّفولة, رجع إلى بوَّابة بيته بعد غياب, رآها باكية, لمسها بأنامله, دفعها فوقعت أرضاً, لم يكنْ هناك أيُّ بيتٍ ولا أيّ إنسان, جميعهم رحلوا, ذهبوا يبحثون عن الحرِّيَّة, الحرِّيَّة السَّاقطة من بين أصابعه, الحرِّيَّة السَّاقطة من الزَّمن, الحرِّيَّة السَّاقطة من الوجود, والحرِّيَّة السَّاقطة من الوطن!
بقي بجانبه, سَكينَ العزلة والجدران المتهدِّمَة, استنجدَ وتوسَّل, خاف فمات الحُلم من عينَيه, بكى فاقتلع الأمل من قلبه, ظلَّ يعوي مثل كلب جريح لا أحد يسمعُ صراخَه:
سأنزل من مسمار كفِّي،

وأحدِّقُ في الواجهات،
وأعلنُ أنْ لا ضميرَ لقلبي
في محنة الهوس
سأتنازلُ كثيراً عن وجهي
قبل لحظة الاختفاء
وأقرِّرُ من فتحة معصمي أنْ ليس هناك هواء
غير هواءٍ لا أراه
هو الوحيدُ الدَّلالةُ على أنَّ الطَّريقَ ما زال إلى المجهول
غير محال

15

تركتِ المأساةُ في قلبه, بفقدان الأهل, جرحاً لا يندمل, علمَ أنَّ للحرِّيَّة دلالات, الشَّمعة المتَّقدة هي الذَّاكرة النَّحسة, تسبِّبُ فقدانَ الذَّات, تحرقُ العقلَ والوجدان, تذيبُ الأملَ وتُضيءُ سيِّئات الأقدار.
والحزن عيبٌ كبير, لا يفارقنا لو ضحكنا, يلتصق بنا كلَّما اقتربَت منَّا السَّعادة, يحمل آلامَنا وتعاساتِنا في تابوت الورق, ويكون عيباً جميلاً عندما لا يستطيعُ أحدٌ دفنَه...

ويصرخ (ساد) بأعلى صوته مناديا (سادينا):
يا أنتِ,
أوجعَني كثيراً هذا الرَّأس،
أحملُه في متاهات الكذب،
لذلك سأسلِّمُ راياتي إليكِ تحت ضجيج الموت،
لا قطرة سأسكبُها في محفلكِ إلاَّ ما تبقَّى من أصابعي،
هي التَّلويحُ الأخيرُ إلى سمفونيَّة البكاء.

فتح الخريف أبوابَه لملاقاة عصر آخر. من خلف زجاج السَّنوات عُزفت إحدى السُّوناتات, و(ساد) في كهفه يحاول الخروجَ منه والوصولَ إلى قيثارة الحبِّ الغافية بين أنامل عازفة غريبة. يدرك أنَّ عصرهما مختلفان، كما يدرك تمام الإدراك أنَّ المعزوفة خُصِّصَت له ولـ (سادينا) فقط!

أراد تحدِّي الطَّبيعة واختراقَ القوى الجبَّارة فيها كي يصلَ مكانَ الصَّوت. الأنغامُ تُنسيه الواقع, إحساسٌ غريبٌ يُثقلُ صدرَه، يدعوه إلى العَدو, يركضُ بسرعةٍ محاولاً الخروجَ من الدَّائرة المُغلَقة, يعدو بين النّقاط, يبحثُ عن ثغرات, وإذا بها وهميَّة, ثغرة تلو الأخرى, خطواتُه تلتوي فيبدو كثعبانٍ مُنساب. إستنفدَها جميعها من دون فائدة! جميعها أغلقت في وجهه, قرَّرَ أن يزيدَ من سرعة العَدو، ربَّما يجدُ لنفسه مخرجاً قبل أن تنغلق، فظهر كراقصٍ محترفٍ مجنونٍ يكسرُ جدرانَ الوهم!

يحوِّلُ عكَّازَه قيثارة, شاهراً إيَّاه أمام الصَّمت, يعزفُ بسبابته على أوتار الهواء, أسماها سمفونيَّة الانتظار, هذا الجليسُ الغرائبيّ, وأناملُه الموهوبة، يجلسُ على جمر الثَّلج, والسُّكونُ السَّرمديُّ يخطفُها من يدَيه ليرجعَها قائمةً على الأرض ترتعشُ أوتارُها أمام عظمة عكَّازٍ قديمٍ متين, تحتضنُ معزوفاتٍ لا نهاية لها من الحكمة, عميقٌ صخبُها, عاريةٌ حقيقتُها, حزينةٌ ألحانُها عندما تحوِّلُها الذِّكرياتُ بندقيَّةً قاتِلة, تقهرُ العمرَ والجمال...
هذا الضائعُ الآتي من ضفَّة الانتظار
على ضفَّة الغربة
كيف يتقوَّسُ الكلامُ
فوق تعرُّجات الصَّدى
ويفضحُ المَسكون تحت اللِّسان،
ويخرجُ بصوتٍ يفزِعُ سكونَ العشَّاق
على ضفة نهرٍ لا يتساءل،
ومحيطات كثيرة الهذيان
كيف ينامُ الصَّمتُ في حضني،
وأنا أتجوَّلُ به من اللاَّمُباح
إلى شمس الكلام
هذا بعضُ خجلي

 © Tous droits réservés

تضعه الرِّيحُ في حلبة رقص, تقرعُ الطُّبول محفِّزة وصوله، وحاملو المشاعل يدورون حوله يُضيئون له الطَّريق, الصُّراخ يملأ الكون... يشاركهم الصُّراخ, فكانت لغة التَّواصل... يرمون له فتاةً سمراءَ كعربون محبَّة... هديَّةٌ قيِّمة... يرفضُها... ويأبى استبدالَها بسادينا... توقَّفتِ الطُّبولُ وتسمَّرَتِ الأجسادُ النَّازفةُ عرقاً, يتحوَّلُ القرع تساؤلات, وعيونٌ غاضبةٌ تتَّقدُ جمراً...
يخرجُ من حلبة الرَّقص, الوجوهُ الواجمةُ تتعقَّبُه, وحارسٌ يُشعلُ له مكانَ الخروج بلهيب عصا.

لا نهايةَ للحزن،
مَن سيُكفكِفُ الدَّمعَ عنِّي؟
نساءٌ عراةٌ يسكُنَّ المكان،
يُحيطنَّني ولا يستطِعنَ تخليصي من ألمي
كيف لي التَّخلُّص من هذا النَّزيف؟
أنا رجلٌ ممنوعٌ من الصَّرف
في مصرف البقاء
توقَّفتُ كثيراً
كي أحصلَ على سلامي
هذا الطَّابور الطَّويل من التَّأكُّد
باتَ واضحاً حين أوقفني أحدُهم
للسُّؤال عن حجم سنواتي
وفي الكأس الممنوعة من المجاملات
تركتُ بعضَ سرِّي للحارس اللَّيليِّ
هو الوحيدُ الذي يعرفُ بعضَ تصرُّفاتي
في قارَّة الممنوع من الصَّرف

إستطاعتِ الرِّيحُ إخفاءَ مَعالم المساحات أمامه بدورانها السَّريع, حاصرَته داخل دائرة أرضيَّة, وانحنَت أمام السَّماء العالية بخشوعٍ تطلبُ المساعدة, انخفضت, وبدأت تقذفُ نيرانَها نحو ذلك الآدميَّ الأعزلَ الذي ارتعشَ أمامها.
يأتيه صوتٌ أجشّ مخيف من بعيد:
إنَّك تقفُ في منطقة محظورة
يا أيُّها الآدميُّ العجوز,
ظلُّك ثقيلٌ على الأرض
يا أيُّها الشَّيخ التَّعيس,
إرجعْ أدراجَك حالاً،
فالطَّريق لم يعُدْ لك.

16

تُصفِّقُ له الأيدي المزروعة في السَّماء, يصلُه التَّصفيقُ مُتتابعاً, مُلحّاً, متضامناً, معلناً عن طريقٍ خاصٍّ شُقَّ له كي يسيرَ فيه, مالساً معبداً داخل صحراء مقفرة.
سحبته الصَّفقات فخطا خطواته الأولى بتردُّد وترقُّب. علا ضجيج الصَّفقات مُنذراً بعدم التباطؤ.

تكاثرتِ الأيدي فحجبت عنه الشَّمس بانكسارها بين أنامل أخذت تطول فأضفت على الكون ظلاً استظلَّ به, لكنَّه حال أن تاهَ بين الصَّخب وانكسار الضَّوء , والأنامل التي تشابكت من أجله وكوَّنت مظلَّةً عملاقة حجبت عنه فصلاً صيفيّاً طويلاً, تمدَّدت كوسادة بيضاء في الفضاء القريب.
يقف غارقاً في أفكاره يتفيَّأُ بظلِّ الأنامل المزروعة, يركِّزُ نظرَه على جذورها التي بدأت تنسحبُ رويداً رويداً واحتلال السّحب المفاجيء للفضاء, سحب ثقيلة تحوِّلُ السَّبيلَ نفقاً معتماً.
إحتار في مساره, اختلفت عليه الأوقات، وأتتِ السَّاعاتُ المُغادرةُ بزمان جديد لا يُشبه أيَّ زمانٍ آخر...
تعقَّبَ الأيدي فرآها ضائعة، والأنامل تصغرُ حتَّى لتَحوَّلت قطراتِ مياهٍ مستديرةً تبتلعُها الأرضُ الرَّمليَّةُ بسرعة, هبطت بغزارة حتَّى قطعت عنه آخرَ انعكاسٍ ضوئيّ.
مضى (ساد) في طريقه متحدِّياً, غرسَ قدمَيه في التُّراب الذي تحوَّلَ طيناً متماسكاً, أراد الانحراف والرُّجوع في خطواته لكنَّ الرِّيحَ كانت أسرعَ منه, شدَّته وأخذته بعيداً...
إستوقفه صوتٌ متقطِّعٌ جميل, صوتُ (سادينا) من بعيد:

 © ***Tous droits réservés***

يا هواءَ الرُّكن,
لا تُهلِعْ مُداعِبي الأرض,
يكفي ما هالَهم,
لا توقِدِ الخوفَ في النُّفوس المَحمومة,
ولا تقمعْ دروبَ الهدأة,
لا تكُنْ ريحاً مدمِّرةً
ولا تقلق نوافذ البحر الموصدة,
دعني أمرُّ كي أصلَ مكانَ القدَّاس,
ألا تسمَع التَّراتيل؟
فقد بدأت منذ حين,
فأغمس أناملي بزيت الصَّلاة وأفي بوعدي ,
سأنتمي إلى الدَّعوة الإنسانيَّة،
وأغلق باب الماء خلفي,
دعني أخرج ولو للحظات إلى صومعة الأرض
فهناك مَن ينتظرُني,
هناك تكمنُ كلُّ الحقيقة...
عَيناي لم تعُدا تحتملان السَّهر,
وبصيرتي لا تصبر على استمرار المناداة,
لا تدعني أتلاشى
في بحور الذِّكرى قبل التَّلاقي,
فالوصالُ لم يعدْ يحتمل التَّأجيل...
أفسِحْ في المجال لي،
وارمِني فوق حقول الخطوات,
دَعِ المياهَ تتدحرجُ من فوق نهدي،
وخلِّص خاصرتيَّ منها,
أبعِدْها عن رأسي،
وارمِني في عمق الأسرار,
حرِّرني من قيودي
فَلي سرٌّ في الأعماق, أشتاقُ له,
لو أحياهُ فيُحييني !
دندنةُ الأوتار تناديني,
ودمدمةُ الأعاصير تبكيني,
سأركبُ سلّمَ الأولويَّات
وأمتطي صفحات عهد جديد,
أقاتلُ من أجل حياة
وأحفر لقدمَيَّ مداساً جلديّاً
يقيني من برد الخطوات
وجفاف الأرض.

تلاحقُها مجموعةٌ من أصدقاء البحر ينوون الأمساكَ بها وغلقَ سُبُل الخروج في وجهها, يحيطونها سابحين يحاولون إيقافَها، فتُفلحُ في التَّملُّص مراوغة, تبقي ثوبها فارغاً في قبضتهم. تظهرُ أمام (ساد) عارية, فينزع عنه غطاءَه ويغطِّيها بريش الدَّواجن خاصَّته, يبكي بكاء الأطفال فرحاً, تنسكبُ الكلماتُ من فِيهِ كالمطر النَّازل في شلاَّل يصارعُ انعطافاً خطراً, فيسكب لقاء الفرحة مياه باردة داخل قلبه المؤجَّج لهيباً.

يطلقُ صرخة غير مرئيَّة, تخرجُ من الأعماق كرصاصة ناطقة بلغةٍ تختلفُ عن جميع اللُّغات, تبردُ نارُ قلبه وتثيرُ المكانَ هلعاً بصدَاها.

إنزلقت قدماه وهو يحاولُ تخليصَها من أيدي أصدقائها المُصِرِّين على إرجاعها إلى الأعماق, استطاع التَّصدِّي لهم وتخليصَ نفسه من الوقوع, وبكلِّ عزائمه احتضنَها وأبعدَها من منحدرٍ صخريٍّ ضيِّقٍ حادّ.

ظهرت (سادينا) كما عهدَها, شابَّة، يانعة, جميلة... حائرة...

ساد: *لِمَ أنتِ حائرة يا...*
أرادَ أن يقولَها, *حبيبتي... حبيبتي... حبيبتي...* لكنَّه توقَّف أمام عظمة فتنتها حائراً أيضاً.

 © **Tous droits réservés**

سادينا: *لِمَ أنتَ حائرٌ أيضاً يا...*
غلبَها البكاءُ خذلاً, لقد أصبح (ساد) حبيباً قديماً, جاء من الماضي, أتاها متأخِّراً, تناقلته الأزمنة, دحرته السَّنوات وأخلَت منه جمالَ الشَّباب, إصطادته السِّنين بشراهةٍ حتَّى سكبت في جسده يقينَ الأقدار وعبثَ العصور.

سمعَته يسترسل:
حائرٌ بكلِّ ما مُنِحتُ من جمال!
أنتِ جميلةٌ جدّاً...
وشابَّةٌ جدّاً... جدّاً... جدّاً...
كيف لي...

أراد أن يصرخ, أن يستنجد, أن يقولَ ويقول, لكنَّ الكلام توقَّف في حلقه, بكى ومسح دموعَها بكفَّيه, طوَّقها وأسكنها في صدره العجوز لبرهة وهو يسمعُ نداءَها:
دَعني أرجع إلى مسكني,
البحر يناديني,
هو ملجأ لي, إنَّه يحتضنني,
والأرض ستبقى ملجأً لك,
إبقَ فيها لأنَّكَ ستموت موتاً جميلاً عليها...
هي أرضُكَ، وهو مائي...

نزعَت منديلاً أحمرَ أحاط عنقها وأهدَته إيَّاه:
هو منديلُ العزاء,
مسحتُ به دموعَ بقائي,
ثمنَ حياتي.

زمجرَ البحرُ غاضباً, مزَّقَ الشَّاطىءَ شطرَين، وأغرقَ جزءاً كبيراً من اليابسة, اعتصمتِ الأمواجُ مهدِّدةً بدورانها السَّريع, اعتلتِ المياهُ وأخذت (سادينا) إلى الأعماق.

يصرخ (ساد) بأعلى صوته، يريدُ اللِّحاق بها, فتخاطبه بلغة الأنامل جادَّة, تنبِّهُه وتحذِّره بعَدَم الاقتراب.

وقفَ في مكانه صامتاً, حزيناً, ودَّعَ أناملها النَّاعمة بعينَين غابَ عنهما البصر والضَّوء...

إشتدَّتِ الرِّيح, و(ساد) يقبض على منديل (سادينا) بكلِّ قوَّته, حاربته الرِّيحُ بكلِّ قوَّتها لكنَّها لم تستطِعْ منه.

صرخ بأعلى صوته:
في كفِّكِ السِّحرُ يتجلَّى
هذا الرَّمادُ المعتَّقُ
في بوتقة الخروج إلى عباب المداهمة.
لماذا لا تكفِّين من لغة اليباب
الملوَّن بعطر الانتظار.
أنتِ جزءٌ أم أجزاء يحرسُها فراغُ العمر،
أو عطر تابوت البلاد بهذا الغناء الممنوع من الصَّرف،
وأنزل إلى اللَّون الأخير في تجلِّيات النَّهر،
أصرخُ بغباء الصَّوت لهذا الصَّرح العالي من برد الموت،
وَحدَك ما زلتِ في الحقل الباكي،
ترقصين بلباس الغناء على شرف عشاء التَّأخُّر.
كم هو جديٌّ هذا المدوَّرُ بالانكسار
يترنَّحُ فوق سبابتكِ التي قطَّعها العزف،
ويمضي في صورة وجهكِ
هو الآنَ يُدندنُ في مرآة عاطلة؛
ووَحدَه، في معقل الكذبة،
يجمعُ السَّاعة الوهم في ظلِّ الغبار.
أيّ نومٍ هذا يرحلُ في موكب الصَّوت،
ويرسمُ على الجدار الفيضانَ الأسودَ الذي لم أتذكَّره،
فوق الطَّاولة زرعَ آخرَ سؤاله في فتحة التَّنفُّس،

وسلَّمَ مفتاحَ رئتَيهِ إلى شيءٍ لا يأتي من سؤال الرِّيح.
سأودعُ قلقي في مصرفِ الهدوء،
وأسحبُ من خزين تلويحك آخرَ ما أرميه من الكنز
هي نصفُ رايةٍ للتَّصفيق في أحمرك الأخير
الذي سيوصلُك إلى جهنَّم الضَّحكِ
على شرف الوجه الممنوع عن الوجه.
وأنتِ!!!
هذا آخرُ منديلٍ لكِ يحتفلُ به الموجُ القادم
من غضب البحر، في لحظة سقوط العكَّاز.

سقط العكَّازُ من يده, ارتدَتِ الأرضُ ثيابَ الغبار, تدحرجَ الغطاءُ الرِّيشيّ، وغادر إلى البعيد, هدرَ البحرُ على الحوافي مهدِّداً, تصلَّبت شرايين (ساد) الذي اختفى في الغبار وانحنَتِ السَّماءُ بسُحُبها تتوعَّدُ مَجيءَ عصرٍ جديد.

قدَما الشَّابِّ تقتربان, تتقدَّمان, على طول طريقٍ مفتوح, مزروعٍ بالأمل والاستمراريَّة, تنسابان بخفَّة فتُحدثان صريراً خشناً على الرَّمل الأصفر, تتوقَّفان أمام اللَّحظة بخشوعٍ وتأمُّل, كشاهدتَي عِيان.

وجهُه المُزهرُ ربيعاً يبتسمُ باعتزاز, يذرفُ الدَّمعَ إخلاصاً ومحبَّة, الموتُ خطوةٌ أولى لحياةٍ قادمة, والماضي بدايةُ طريق المستقبل.

يأخذُ العكَّازَ بين يدَيه بفخر, ثقيل, عظيمٌ بحكمته, يقبِّله ويقرِّبُه إلى قلبه, يرحلُ به معتَزّاً مفتخراً, يمضي إلى حيث تكملةُ المصير.